من بلاغة القرآن الكريم

في الوصايا العشر

أ.د/ عبد الحليم محمد إبراهيم شادى

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

بكلية اللغة العربية

بإيتاى البارود

بسم الله الرحمن الرحيم

الوصية في اللغة من «أوصى الرجل ووصاه: عهد إليه (بكذا) وأوصيت له بشئ، وأوصيت إليه: إذا جعلته وصيك وأوصيته ووصيته إيصاء وتوصية بمعنى (واحد)، وتواصى القوم: أوصى بعضهم بعضا، وفى الحديث الشريف «استوصوا بالنساء خيراً، فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج، وإن أعوج ما فى الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء»[1]، والوصى الذى يوصى والذى يوصى له وهو من الأضداد.. والأنثى وصى، والوصية ما أوصيت به، وسميت وصية لأنها تتصل بأمر الميت.. وقوله عز وجل: «يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين»[2] معناه يفرض عليكم، لأن الوصية من الله إنما هى فرض، والدليل على ذلك قوله- تعالى- «ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به[3]..» وهذا من الفرض المحكم علينا.. وتواصوا، أوصى بعضهم بعضا»[4] وإذا قيل: أوصيته بولده معناه: استعطفته عليه، وأصيته بالصلاة: أمرته بها ... ولفظ الوصية مشترك بين التذكير والاستعطاف

---

(١) رواه أبو هريرة - رضى الله عنه - (رياض الصالحين ص ١٤٠ للإمام المحدث يحيي بن شرف النووى. تعليق وشرح مصطفى محمد عمارة. دار إحياء الكتب العربية.

(٢) الآية ١١ سورة النساء.

(٣) من الآية ١٥١ الأنعام من الوصايا موضوع الدراسة.

(٤) لسان العرب مادة (وصى) جـ٦ ٤٨٥٣ ، ٤٨٥٤ نشر دار المعارف.

والأمر فيتعين حمله على الأمر ، ويقوم مقامه كل لفظ فيه معنى الأمر [١] والوصية في شرع الله هى: الطلب المؤكد المقدور [٢] وهى التى تضم أمهات المسائل فى التشريع [٣]- يقول ابن عباس - رضى الله عنهما « هذه الآيات المحكمات التى ذكرها في سورة الأنعام أجمعت عليها شرائع الخلق ولم تنسخ قط فى ملة » [٤] وروى عنه قال: هذه آيات محكمات لم ينسخهن شئ من جميع الكتب وهن محرمات على بنى آدم كلهم وهن أم الكتاب من عمل بهن دخل الجنة، ومن تركهن دخل النار» [٥] . ولذا يقول كعب الأحبار - وكان يهوديا فأسلم وحسن إسلامه - هذه الآية مفتتح التواره : بسم الله الرحمن الرحيم: ى قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم... » [٦] وأخرج ابن حميد وأبو الشيخ والحاكم وصححه عن عباده بن الصامت قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم:

---

(١) المصباح المنير للفيومى مادة (وصى) جـ٢، ٩١٢ ، ٩١٣ الطبعة الثامنة طبعة وزارة المعارف بالمطبعة الأميرية ١٩٣٩م.

(٢) الجامع الأحكام القرآن للقرطبى ١٣٤ جـ٧ الطبعة الثالثة دار الكتاب العربى للطباعة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ و ٥٥ ، ٥٦ جـ٨ روح المعانى للألوسى مكتبة دار التراث بالقاهرة . المركز الإسلامى للطباعة والنشر بالأهرام .

(٣) ٣٩٩٠ جـ٥٠ تفسير الشيخ الشعراوى طبع وتوزيع أخبار اليوم .

(٤) ١٣٢ الجامع ... للقرطبى.

(٥) ٥٧ جـ٨ روح المعانى للألوسى .

(٦) ١٣٢ جـ٣ الجامع ... للقرطبى.

« أيكم يبايعنى على هؤلاء الآيات الثلاث ثم تلاهن إلى آخرهن ثم قال: فمن وفى بهن فأجره على الله - تعالى - ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله - تعالى - فى الدنيا كانت عقوبته ، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله - تعالى - إن شاء أخذه وإن شاء عفا عنه »[1].

يقول الله - تعالى- «قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً، ولاتقتلوا أولادكم من إملاق ؛ نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون* ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط؛ لانكلف نفساً إلا وسعها، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون* وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولاتتبعوا السبل؛ فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون»* [2].

ولنا فى الهداية ملاحظات :

اولها: فى سورة الأنعام وردت وصايا عشر ، وفى سورة الإسراء وردت ثماني وصايا من هذه الوصايا العشر لكنها لم ترد بلفظ الوصية بل صدرت بقوله- تعالى- « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه.. » ثم زيد عليها ثلاث أخرى هى الواردة فى الآيات الكريمة :

---

(١) الألوسى : المرجع والصفحة ٥٧.

(٢) ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ سورة الأنعام .

« ولاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولاتبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا »[١]* « ولاتقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً* ولاتمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً* [٢].

ثانيتها: وردت وصايا سورة الإسراء الثماني على ترتيب الوصايا الثمانى الأولى فى الأنعام غير أنه فى الأخيرة فصل بين الأمر بإيفاء الكيل والميزان ، والأمر بالوفاء بعهد الله بالأمر بالعدل فى القول: « وإذا قلتم فاعدلوا » وهذه غير موجودة فى الإسراء هى والوصية الجامعة: « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل.. ».

ثالثتها: أن فى الوصايا الواردة فى الأنعام بلفظ الأمر جاء الموصى به أى المتعلق بالأمر مقدما على الأمر ماعدا الأمر بإيفاء الكيل والميزان.. وذلك لسر بلاغى سنبينه[٣] إن شاء الله -تعالى-

رابعتها: وصايا سورة الأنعام هى الجامعة؛ فقد ختمت بالوصية الشاملة : « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل.. » التى ينضوى تحتها وصايا السورتين كلها ، والوصايا الأخرى التى جاء بها الإسلام والقرآن والحديث الشريف وماتشملها مصادر التشريع الأخرى مما يدخل تحت مافرضه الله ، وماحرمه.

---

(١) ٢٩ سورة الإسراء .

(٢) ٣٦ ، ٣٧ سورة الإسراء .

(٣) انظر ص ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧.

خامستها: ما السر البلاغى فى مجئ بعض الوصايا بصيغة النهى ، وبعضها بصيغة الأمر؟ وسنبين ذلك إن شاء الله - تعالى-

أما مناسبة هذه الآيات الكريمة لما قبلها فإن الله -تعالى- ينعى على المشركين فيما سبق من آيات أنهم قسموا الأنعام والزروع والثمار قسمين[1].

- قسم لله -تعالى- وقسم لشركائهم الأوثان التى يعبدونها من دون الله، ويشركونها فى أنفسهم وأموالهم وأولادهم بإغواء الشياطين لهم بقتلهم سفها بغير علم.

- ثم إنهم شرعوا فى الأنعام والزروع تشريعاً آخر ظالما من عند أنفسهم، وهو أنهم يأخذون نصيبا مما جعله لله ولايفعلون مثل ذلك فيما يجعلونه لشركائهم بل يبقونه على ماهو عليه.

بل زادوا على ذلك الافتراء افتراء آخر فى الزروع والأنعام فكانوا يمنعون جزءا منها يحرمون إطعامه زاعمين أنه لايطعم إلا بإذن الله.

بل كانوا يحرمون ركوب بعض الأنعام ولايركبونها فى الحج بحجة أن فيه ذكر الله - زعماً من عند أنفسهم - كما كانوا يمنعون أن يذكر اسم الله عليها عند ركوبها أو ذبح بعضها مع زعمهم الباطل بأن كل هذا من تشريع الله .

---

(١) بتصرف من ص١٢١٤ فى ظلال القرآن جـ٣ للأستاذ سيد قطب الطبعة العاشرة ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

بل كانوا يشرعون تشريعاً آخر عجيباً ؛ إذ كانوا يخصون ما في بطون الأنعام من اللبن والأجنة إذا نزلت حية بالذكور ويحرمونه على نسائهم إلا إذا نزل الجنين ميتا فيشركون فيه الإناث مع الذكور فيأكل الجميع . فأى شركة في الميت هذه ؟!.

يقول الله - تعالى- في ذلك كله راداً عليهم وناعيا عليهم وجهتهم الظالمة: « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم ، وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء مايحكمون* وكذلك - زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم (١)؛ ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ، ولو شاء الله مافعلوه فذرهم ومايفترون *، وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لايطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لايذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون * وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ، ومحرم على أزواجنا، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم * قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا مارزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وماكانوا مهتدين *(٢) ويتواصل النظم الكريم حتى يعقب على افتراءاتهم وزعمهم على سبيل التهكم، إذ يقول الله- تعالى- «أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً؛

---

(١) « شركاؤهم » فاعل و «قتل» مفعول به مقدم.

(٢) الآيات من ١٣٦ إلى ١٤٠ سورة الأنعام.

ليضل الناس بغير علم ، إن الله لايهدى القوم الظالمين * قل لاأجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً ، أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم[١] » * حتى تصل الآيات إلى قوله تعالى: «قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا ، فإن شهدوا فلا تشهد معهن ولاتتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لايؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون» *[٢].

وفى النهاية ينزل الله - تعالى - على رسوله - صلى الله عليه وسلم - مايخالف حالهم هذا مما يصلح شأنهم فيقول- تعالى-: «قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم..» أمر للرسول - صلى الله عليه وسلم - بعدما ظهر بطلان ما ادعوا «أن يبين لهم من المحرمات مايقتضى الحال بيانه على الأسلوب الحكيم إيذانا بأن الواجب اجتناب هذه المحرمات»[٣]، ولهذا الأسلوب بلاغته العالية، وقد ورد فى القرآن الكريم فى أكثر من موطن من ذلك قوله -تعالى- «ويسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج..»[٤] هم يسألون عن مطالع القمر: كيف يبدو هلالاً ضعيفا ثم يكبر شيئاً فشيئاً حتى يصير بدراً، ثم يبدأ فى الانحدار شيئاً فشيئاً إلى أن

---

(١) ١٤٤ ، ١٤٥ الأنعام .

(٢) ١٥٠ سورة الأنعام.

(٣) ٥٣ جـ٨ روح المعانى للألوسى .

(٤) ١٨٩ سورة البقرة .

يصير هلالاً مرة أخرى ثم محاقاً، لكن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يجبهم بإجابة مباشرة عن سؤالهم بل بإجابة لسؤال لم يسألوه ليلفت نظرهم إلى ماكان يجب أن يسألواعنه لأن فيه الفائدة من هذا التدرج القمرى فقال: «هى مواقيت للناس والحج..» كذلك فى هذه الوصايا؛ «المعنى هنا على الاستفهام : تعالوا أقل لكم وأبين لكم جواب أى شئ حرم ربكم..»[1] فالمحرمات التى ذكرت فى هذه الوصايا غير محرماتهم- وإن كان السؤال لم يذكر، كما فى إجابة الرسول السابقة عن سؤال غير مذكور عن تدرج القمر ، فالغرض هو لفت نظرهم إلى مايجب أن يتنبهوا له ويطبقوه ومايجب أن ينصرفوا عنه شأن أسلوب الحكيم ، وعليه فالمعنى : « تقدموا واقرءوا حقا ويقينا كما أوحى إلى لاظناً ولا كذبا كما زعمتم»[2].

ومن يدقق النظر فى هذه الوصايا يجدها من الآيات الجامعة البليغة التى نفذت إلى الغرض الذى سيقت له بإيجاز ووضوح ويسر ونفذت إلى أذهان السامعين متضمنة مايصلح حال الجماعة العامة والخاصة، ثم أوجزت فى نهايتها طريق النجاة العام بما اشتمل عليه وهو اتباع طريق الإسلام وتعاليمه؛ ولهذا انقسمت الأحكام التى تضمنتها هذه الجمل المتعاطفة فى الآيات الثلاث ثلاثة أقسام :

---

(١) ٥٣ جـ٨ روح المعانى .

(٢) ١٣٠ جـ ٣ الجامع لأحكام القرآن للقرطبى.

القسم الأول [١]: أحكام بها إصلاح الحالة الاجتماعية بين الناس، وهى ماتضمنت النهى عن الشرك بالله ، والأمر بالإحسان إلى الوالدين ، والنهى عن قتل الأولاد من الفقر والنهى عن قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق.. ثم تختتم الآية بقوله -تعالى- «ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون» ..

القسم الثانى : وهو مابه حفظ نظام تعامل الناس بعضهم مع بعض وهو ماتضمن النهى عن اقتراب مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن... والأمر بإيفاء الكيل والميزان بالقسط والأمر بالعدل فى أى قول كان ، والأمر بالوفاء بعهد الله ثم تختتم هذه الآية بقوله -تعالى- « ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون»..

القسم الثالث : هذا القسم أصل كلى جامع لجميع الهدى وهو اتباع طريق الإسلام والتحرز من الخروج عنه إلى الضلال وهو المتضمن الأمر باتباع صراط الله المستقيم والنهى عن اتباع الطرق الأخرى الشيطانية.. ثم تختتم هذه الآية بقوله - تعالى- «ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون» ومن اللطيف أن كل قسم منها عقب عليه وذيل بما يلائمه وسنفصل السر البلاغى فى كل تعقيب وتذييل في مواطنهما إن شاء الله - تعالى- ..

---

(١) ينظر - أيضا - ١٥٤ جـ٨ تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور - نشر الدار التونسية سنة ١٩٨٤م.

« قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم: ألا تشركوا به شيئاً.. »
الأمر «قل» للرسول - صلى الله عليه وسلم - بالتبليغ ، وهو أمر للاستعلاء الحقيقى الذى يتحتم تنفيذه دون تردد ؛ إذ أنه من الإله الخالق القادر المشرع للناس بما فيه صالحهم وسعادتهم ؛ ففيه استعلاء الخالق علي المخلوق وهو أعظم وأعلى الاستعلاءات ؛ إذ هو ليس كالاستعلاءات البشرية المتسمة بوجوب التنفيذ لكنه فوق ذلك بكثير ؛ حيث إن مخالفته مؤكدة المؤاخذة عليها ؛ فليس فيها احتمال ذلك مصداقا لقوله- تعالى - «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته.. »[1] ولهذا أقول: هل كان يتسنى التعبير بصيغة أخرى غير قوله: «قل تعالوا أقل .. »؟.

التصورات البشرية العاجزة - تتصور التعبيرات الآتية :

- حاشا لله - تعالى- :

تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم... أتلو ما حرم ربكم عليكم- إنما أتلو ما حرم ربكم عليكم - إنما حرم ربكم عليكم- قد حرم ربكم عليكم - قل حرم ربكم عليكم .

ويلاحظ أن التعبيرات الخمسة الأولى خلت من الأمر «قل» وأن الخمسة الأخيرة خلت من الأمرين معاد (تعالوا أتل) كما خلت هذه الخمسة - أيضا- من الأمر «تعالوا» وحده كما خلت الثلاثة الأخيرة من الأمر «أتل» وحده ولايمكن أن تخلو الآية القرآنية عن الأفعال

---

(١) ٦٧ سورة المائدة .

الثلاثة معا؛ أما عن الأمر «قل» فإن من يدقق النظر أكثر يجد أن هذا الأمر فيه من الأسرار البلاغية والحكم الإلهية مايفحم هؤلاء الكافرين ويدحض افتراءاتهم على الله بتحريم أشياء من عند أنفسهم زاعمين أن تحريمها من عند الله - تعالى- فهو يشعرهم بأن هذا الرسول مأمور بالتبليغ «قل» وهو نفسه لايستطيع أن يقدم على ما أقدمتم عليه من ادعاء هذا التحريم؛ لأنه يبلغ عن الله -تعالى- ما أوحى إليه فهذا أمر من الله للرسول بتبليغ ماحرمه الله حقيقة وما أحله فكيف بكم أنتم تحرمون وتحلون من عند أنفسكم؟ ثم تزعمون أن هذا التشريع من عند الله ؛ ولذا فإن خلو الكلام عن الأمر «قل» يجعله خاليا من القوة الروحية أو الإلهية للتبليغ إلي جانب أن هذا الأمر - أيضا - يتضمن استهزاء بهم وسخرية منهم ، بل يصفهم -ضمنا- بالكذب والافتراء ؛ إذ أن ادعاءهم المحرمات لايستند إلى مثل هذا الأمر الإلهى ومن هنا نعلم لماذا أمر الله الرسول بهذا الفعل وبدئت به هذه الوصايا ؟

كما أنه لم يكن يمكن أن تخلو الآية الكريمة من قوله -تعالى- «تعالوا أتل» أو من الأمر «تعالوا» وحده أو من الأمر «أتل» وإلا خرجت كذلك عن البلاغة القرآنية ؛ لأنها فقدت الميزات البلاغية التى يوحى بها كل من هذين الفعلين ؛ إذ أن فى الأمر «تعالوا» حثا لهم على أن يرتفعوا عن الدنايا التى استحدثوها من عند أنفسهم بتحريم مالم يحرمه الله إلى مافيه سمو بهم وهو تحريم ماحرمه الله حقيقة، وما أمر به، كما أن فيه إشعاراً بشفقة داعيهم إلى الإيمان وهو الرسول- صلى الله عليه وسلم- وأنه يهمه أمرهم ويعمل لما فيه صالحهم، وفى هذا شرح لصدورهم وتفتيح لعقولهم وتأثير فى نفوسهم واستدراج لهم إلى الإيمان بمحض رغبتهم.

كـذلك الفـعل «أتلو» خلوه من الكلام يفـقـده بلاغـتـه؛ لأن انضمامه إلى الأمر «قل» يؤكد الغرض منه؛ لأنه إذا كان هذا الأمر يشعر بأن هذه الوصايا وحى من الله إلى الرسول ليبلغها فإن الفعل «أتلو» يؤكد ذلك ؛ لأن التلاوة ماهى إلا قول أو قراءة وحكاية النص بلفظه دون تصرف فيه بتبديله أو تغيير فيه ، والنص هنا هو الموحى به من الله -تعالى - وهو تلك الوصايا فهو يؤكد تبليغها عن الله ، وأن هذا الأمر «قل» من الله ، ولهذا فإن هناك تلازماً فى هذا المقام بالذات بين الثلاثة؛ إذ يتعين ذكرها دون سواها على هذا الترتيب :

أ- الأمر «قل» من الله - تعالى - بالتبليغ الذى يشعر بأن هذه الوصايا وحى من الله - سبحانه وتعالى - .

ب- الأمر «تعالوا» - إلى جانب ما اكتسبه من معنى الإقبال - فهو يشعر بطلبهم أن يرتفعوا عن الدنايا التى استحدثوها من عند أنفسهم إلى الارتقاء نحو مابينه الله مما حرمه حقيقة (لعلهم يعقلون - لعلهم يذكرون - لعلهم يتقون) .

جـ- ثم الفعل (أتلو) الذى يؤكد أمر التبليغ عن الله ، حيث يشعر بأن الرسول ماهو إلا تال لهم نصه عن الله- سبحانه وتعالى- ولايد له بالتغيير فيه أو تبديله وسبحان من هذا كلامه!!

هذا .. والأمر (تعالوا) معناه الحقيقى الأصلى الاعتلاء إلى أعلى من مكان أسفل؛ إذ أن الأصل فيه أن يقول من في مكان عال لمن فى مكان أسفل (تعال) (١) أى ارتفع إلى مكانى الذى أنا فيه

---

(١) ١٣٧ جـ٤ تفسير البيضاوى على هامش حاشية الشهاب الخفاجى (عناية القاضى وكفاية الراضى) المكتبة الإسلامية محمد أزدمير - ديار بكر - تركيا.

فهو - أصلاً- أمر خاص ، أو مقيد بتلك الحال لكنه لما كثر استعماله صار للدعاء والإقبال علي الطالب مطلقا [1] فصار عاماً بعد أن كان خاصاً ، أو مطلقاًبعد أن كان مقيداً؛ إذ أنه استعمل بمعنى (هلم) أو (أقبل) سواء كان المدعو في مكان أعلى أو أسفل أو مساو وهنا لايقصد الإقبال حقيقية- على المتكلم وإلا كان الأولى أن يقال: هلموا أو أقبلوا ففى الفعل«تعالوا» مجاز مرسل لعلاقة العموم والخصوص، أو الإطلاق والتقييد؛ حيث استعمل الخاص (المقيد) (تعال) وأريد به العام (المطلق) (هلم أوأقبل) والمتناسب مع المقام ومع نظم الكلام وقصد القرآن الكريم هو المجاز المرسل وليس الاستعارة - لأن اللفظ فيه انتقال - بتواضع العرف - من المقيد إلى المطلق وهو المقصود ليشمل الحضور الحقيقى فى مكان عال أو متوسط أو مساو، وليشمل الحضور المعنوى، وهو الإقبال إلى الحق وإلى الحلال، وترك (الباطل) والحرام ، فالعرف فى المجاز المرسل أعان على ذلك؛ حيث إن الغرض هو الإقبال مطلقا.

هذا .. وإذا كان القرآن الكريم استعمل هنا الأمر بالمعنى العام وهو الإقبال مطلقا إلا أنه فى الآية الكريمة لايخلو من قصد المعنى الخاص (تعالوا بالمعنى الأصلى) فيكون على معنى (ارتفعوا إلى أعلى)؛ إذ أن فيه قصد الارتفاع عن الدنايا السابقة التى حرموها وأحلوها وزعموا أن ذلك من عند الله وإلا فلم لم يقل: هلموا أو أقبلوا فكأنه يقول لهم : دعكم من هذه الترهات ، وتلك الأباطيل وارتفعوا عنها واستمعوا إلى المحرمات - حقا- وهى التى حرمها الله

---

(١) ويتصل به الضمائر باقيا على فتحه..

تعالى- ؛ ولذا يرى بعض العلماء أنه «يحتمل أن يكون هذا الأمر على الأصل تعريضا لهم بأنهم فى حضيض الجهل ولو سمعوا مايقال لهم لترقوا إلى ذروة العلم وقنة العزة[١] ».

« ماحرم ربكم عليكم » :

ظاهر هذه العبارة أن منطوق هذه الوصايا كلها على النهى للتحريم ولكن من الواضح أن خمساً منها بصيغة النهى وأن الخمسة الأخرى بصيغة الأمر على الترغيب فكيف أطلق على الجميع (محرمات) أو كيف تدخل الأوامر فى «ماحرم ربكم عليكم» ؟

الجواب أن ذلك لأسرار بلاغية سيأتى بيانها كل فى موطنه إن شاء الله - ويمكن أن يقال : إن مارغب فيه بلفظ الأوامر ضده هو المنهى عنه المحرم فيكون الجميع محرما : منطوق النواهى وأضداد الأوامر ، ولكن غلب لفظ التحريم «ماحرم ربكم عليكم» دون لفظ الأمر" ليكون فى ذلك رد عليهم فيما حرموه من عند أنفسهم كأنه يقول لهم : إن التحريم الحقيقى هو ماحرمه الله - تعالى- وليس ماتحرمونه أنتم - وهذا -كما سبق- على الأسلوب الحكيم- ولهذا كان النص على ماحرم « ماحرم ربكم عليكم» بليغاً لكونه جاء نصاً فى هذا الرد وكان يمكن أن يرد الجميع بلفظ النواهى أو بلفظ الأوامر بأن يقال - مثلا- حاشا لله (أن لاتشركوا به شيئاً، ولاتسيئوا إلى

---

(١) ٥٣ جـ٨ روح المعانى للألوسى ..

وينظر - أيضا ١٣٧ جـ٤ حاشية الشهاب الخفاجى على تفسير البيضاوى ولكن بلفظ (يقول) بالبناء للمعلوم..

الوالدين... الخ أو يقال - مثلا - حاشا لله - قل تعالوا أتل ما أمركم به ربكم: أن اعبدوا الله وحده لاشريك له وبالوالدين إحساناً.. » ويرى الألوسى أن المعنى (قل تعالوا أتل مانهاكم عنه ربكم وما أمركم به) .. ثم يقول : وإذا كان التقدير هكذا صح أن تكون(أن) تفسيرية لفعل النهى الدال عليه التحريم وفعل الأمر المحذوف، ألا يجوز أن تقول: أمرتك ألا تكرم جاهلاً وأكرم عالماً ، ويجوز عطف الأمر على النهى كقول امرئ القيس :

وقوفا بها صحبى على مطيهم
يقولون لا تهلك أسى وتجمل [1]

أقول: وإذا كان تقدير الكلام : (قل تعالوا أتل مانهاكم عنه ربكم وما أمركم به ..) فيكون فى الكلام إيجاز بليغ بالحذف اعتماداً على فطنة السامع من أن الله-تعالى- لاينهى عما هو محبوب له ولا يأمر بما هو مكروه..

هذا ويرى بعض العلماء أن «عليكم» اسم فعل أمر بمعنى الزموا وهو منقطع عما قبله أى عليكم ترك الشرك وعليكم إحسانا بالوالدين وعليكم ألا تقتلوا ... وعليكم إيفاء الكيل والميزان [2].. حقا كان يمكن أن يكون النظم الكريم كله لهذه الوصايا - حاشا لله - بصيغ النهى ، أو بصيغ الأمر ولكن لأسرار بلاغية معجزة وحكم

---

(١) ٥٨ ، ٥٩ جـ٨ روح المعانى .

(٢) ٥٨ ، جـ٨ روح المعانى و ٣٩٨٦ جـ٥٠ تفسير الشيخ الشعراوى .

إلهية محكمة مدبرة جاء النظم الكريم هكذا، وسنوضح الأسرار البلاغية - كما قلت - بقدر طاقة البشر فى ذلك كل فى موطنه بإذنه تعالى .

« أن لاتشركوا به شيئاً»

فى (أن) و (لا) أقوال كثيرة[١] ولكن فى نظرى أن أصحها هو أن تكون « أن» فى الآية الكريمة مفسرة[٢] لفعل التلاوة بمعنى (أى) و (لا) ناهية والفعل مجزوم بها لامنصوب وكأنه قيل: تعالوا أقول لكم: لاتشركوا به شيئاً وأحسنوا بالوالدين إحساناً[٣] .. الخ، أو كأنه قيل: (أتل عليكم) ، وتلاوتى هى أن لاتشركوا) **ويرجع ذلك فى نظرى مايأتى :-**

أولاً : (أن) التفسرية مع النهى بعيدان عن التكلف الذى لايليق بالبلاغة فضلاً عن بلاغة القرآن الكريم بخلاف الآراء الأخرى فإن تكلفاً فيها واضحاً.

ثانياً: أنه تقدم فى الكلام مافيه معنى القول دون حروفه وهو الفعل(أتلو) لأن التلاوة من باب القول[٤] وأن التفسيرية يشترط فيها أن تكون الجملة السابقة عليها فيها معنى القول دون حروفه [٥].

---

(١) ينظر مغنى اللبيب لابن هشام فقد أوصلها إلى سبعة آراء ٢٠١ ، ٢٠٢ جـ٢ طبعة دار إحياء الكتب العربية.

(٢) رجع ذلك الزمخشرى ٦١ جـ٢ الكشاف الدار العالمية للطبع والنشر والتوزيع.

(٣) ٢٠٢ جـ٢ مغنى اللبيب لابن هشام .

(٤) ٥٣ جـ٨ روح المعانى .

(٥) ٣٠ ، ٣١ جـ١ مغنى اللبيب لابن هشام .

ثالثاً: أن المقام مقام ردود على محرمات لم يحرمها الله - تعالى- ونهى عن محرمات أخرى غفلوا عنها حرمها الله سواء كان تحريمها بطريق النهى الصريح أو المفهوم من ضد الأمر بدليل قوله: « ماحرم ربكم عليكم» والذى يناسب المحرمات هو النهى عنها المتضمن للحزم والجزم سواء كان صراحة أو بمفهوم الأمر .

رابعاً: يحتمل - كما يقول الألوسى - أن يكون فى الكلام محذوف هو عبارة: «وما أمركم به» فحذف لدلالة «ماحرم» عليه لأن معنى «ماحرم ربكم عليكم» مانهاكم ربكم عنه فالمعنى : (قل تعالوا أتل مانهاكم عنه ربكم وما أمركم به) وهذا يرجح أن تكون (أن) مفسرة و (لا) ناهية جازمة.

خامساً: أن فى قوله -تعالى- «قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم..» تشويقاً إلى نوع مايتلى؛ إذ فيه إبهام أو إجمال يشنف الآذان ويظمئ إلى الارتواء فتتشوف النفوس وتترقب التفسير والتفصيل فجاء ذلك بأداة التفسير (أن) الداخلة على المفسر المترقب المتعطش له، والتى احتصت أول وأعظم وصية. وأول المفسرات أو المحرمات وهو الشرك بالله « أن لاتشركوا به شيئاً».

سادساً : قد ترد شبهة على أن (أن) مصدرية و (لا) نافية مفادها: كيف يدخل قوله: «أن لاتشركوا به شيئاً» تحت قوله: « ماحرم ربكم عليكم» ؛ إذ ظاهره أند حرم عدم الشرك؛ لأن التحريم يكون منصباً عنى المنفى وهو الشرك كأن المعنى: (حرم عليكم

عـــدم الشـــرك) وذلك واضح البطلان ولكن مع (لا) الناهيـــة لاتأتى هذه الشبهة ؛ لأن التحريم معها يكون منصبا على المنهى عنه وهو الشرك فالمعنى معه: (حرم عليكم المنهى عنه وهو الشرك) وكأن السر البلاغى فى تفضيل النهى عن الأمر هو إشعار السامعين بأن الشرك بالله منهى عنه فى جميع الشرائع السماوية وكأن النهى والمنهى عنه هنا لايفترقان فى الأذهان، وينطبق هذا على جميع المنهيات عنها، وعلى أضداد الأوامر؛ إذ أن هذه الأضداد داخلة فى «ماحرم..» فمثلا « ولاتقتلوا أولادكم من إملاق..» المنهى عنه هو قتلهم فالمحرم هو قتلهم كأنه قال: «حرم المنهى عنه وهو قتل الأولاد.. والمنهى عنه فى «وبالوالدين إحساناً» هو الإساءة إليهما فالمحرم هو الإساءة .. والمنهى عنه فى « وبعهد الله أوفوا..» هو نقض عهد الله فالمحرم هو نقض عهده - تعالى- كأنه قال: ولاتنقضوا عهد الله - وهكذا ويؤيد ذلك ماسبق من قول الألوسى السابق: أن معنى «ماحرم عليكم» هو (مانهاكم عنه) ويؤيد هذا - أيضا- أن العقل السليم لايعقل أبداً بحال من الأحوال - أن يكون المراد تحريم النفى (تحريم عدم الشرك) بل يعقل أن المحرم هو المنهى عنه وهو الشرك بالله تعالى كما يؤيده - أيضا- المنهيات الصريحة بعد ذلك : « ولاتقتلوا أولادكم من إملاق...» «ولاتقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن..» «ولاتقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ...» «ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن..» .

سابعاً : من ميزات هذا الرأى- أيضا - أنه يترتب عليه عدم الحاجة إلى تقدير الفعل «قل» أو الفعل «أتل» مع كل وصية بعد الوصية الأولى - كما صنع بعض العلماء للتخلص من هذه الشبهة ، والله تعالى أعلى وأعلم ....

وكان النهى عن الشرك أول هذه الوصايا « لأن إصلاح الاعتقاد هو مفتاح باب الإصلاح فى العاجل والفلاح فى الآجل»(١)؛ ولأن الشرك فى كل صورة هو المحرم الأول، لأنه يجر إلى كل محرم وهو المنكر الأول الذى يجب حشد الإنكار كله له حتى يعترف الناس أن لا إله لهم إلا الله، كما أنهم لايتوجهون بالشعائر لغير الله ، ولأن التوحيد على إطلاقه لهو القاعدة التى لايغنى غناءها شئ آخر من عبادة أو خلق أو عمل؛ من أجل ذلك تبدأ الوصايا كلها بهذه القاعدة»(٢) فإذا هدمت هذه القاعدة هدم البناء كله ولاخير فى عمل بعدها؛ ولهذا فإن الله لايقبل أعمال الكافرين الصالحة وصدق الله «وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً»(٣) وصدق الله « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا * أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا * ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا (٤).

---

(١) ١٥٨ جـ٨ التحرير والتنوير ..

(٢) ١٢٢٩ ، ١٢٣٠ جـ٣ فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب - دار الشروق الطبعة العاشرة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م.

(٣) ٢٣ سورة الفرقان .

(٤) ١٠٣ - ١٠٦ الكهف .

وجاء النهى عن الشرك باللفظ الصريح : « لاتشركوا » دون النهى عنه بطريق التضمين بالأمر بالتوحيد (.. أن اعبدوا الله وحده لاشريك له) لأسباب :

أولا: لأن المقام مقام تأكيد - صراحة - على نبذ الشرك الذى كان سائداً .

ثانياً: لإرساء عقيدة التوحيد وإشاعتها فهو من باب التخلية قبل التحلية .

ثالثاً: أن النهى عن الشرك صراحة يتضمن الأمر بتوحيده .

رابعاً: أن النص على النهى فيه استقصاء لأنواع الشرك كلها، أما الأمر بالعبادة فلا يتأتى فيه ذلك؛ فقد يعبد الناس ربهم ويشركون به بأى صورة كانت من صور الشرك، والخلاصة أن النهى عن الشرك أعم من الأمر بالعبادة لله وحده؛ ولذا قال: «شيئاً» وهى نكرة عامة بل من أوسع النكرات لوقوعها فى حيز النهى أى أى شئ كان فهو شبيه بقوله -تعالى- هل من خالق غير الله يرزقكم..»[1] أى لايوجد أى خالق كان ، فخالق - أيضا- نكرة عامة مستقصية لوقوعها فى حيز «هل» التى بمعنى النفى أى مامن خالق غير الله ... ومثله: (مامعى من مال) أى لايوجد منه القليل ولا أقل القليل، ولم يقل: (لاتشركوا به من شئ) ؛ لأن كلمة (شئ) كلمة عامة بمعناها الموضوعة له - أصلاً- فضلا عن وقوعها وهى كذلك- فى حيز النهى مما جعلها أكثر عموما فهى متضمنة معنى «من شئ» ولذا فليست فى حاجة إلى من التى تؤكد عمومها ،

---

(١) ٣ سورة فاطر .

وقد تجئ من معها صريحة بعد النفى لإفادة زيادة العموم -أيضا- كقوله - تعالى - «ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهة ماعليك من حسابهم من شئ ومامن حسابك عليهم من شئ فتطردهم فتكون من الظالمين»[1].

« * وبالوالدين إحساناً ، ولاتقتلوا اولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم، ولاتقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن».

بين يدى هذه الوصايا الثلاث :

القضايا الثلاث مترابطة : الإحسان إلى الوالدين ، والنهى عن قتل الأولاد من الفقر، والنهى عن الفواحش: الزنا (وما أشبهه) إن هذه القضايا الثلاث جاءت فى النظم الكريم فى سياق واحد متناسب مترابط لأن الثلاث بشأن الأسرة وبشأن إصلاح هذه الأسرة التى يتكون منها المجتمع السليم؛ إذ أوصى- سبحانه الأولاد بالآباء وأوصى الآباء بالأولاد وربط الوصية بمعرفة ألوهيته الواحدة والارتباط بربوبيته المتفردة، وقال لهم: إنه هو الذى يكفل لهم الرزق فلا يضيقوا بالتبعات تجاه الوالدين فى كبرهما ولاتجاه الأولاد فى ضعفهم ، ولايخافوا الفقر والحاجة فالله يرزقهم جميعاً ، ولما وصاهم بالأسرة وصاهم بالقاعدة التى تقوم عليها الأسرة كما يقوم عليها المجتمع كله وهى قاعدة النظافة والطهارة والعفة فنهاهم عن الفواحش ظاهرها وخافيها «ولاتقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن» فهو مرتبط تماماً بالوصية - السابقة عليها وبالوصية الأولى التى تقوم

---

(١) ٥٢ الأنعام .

عليها الوصايا- وكان هذا النهى فى هذا المجال ضرورياً؛ لأنه لايمكن قيام أسرة ولا استقامة مجتمع فى وحل الفواحش ماظهر منها ومابطن، إنه لابد من طهارة ونظافة وعفة؛ لتقوم الأسرة الصحيحة؛ وليقوم المجتمع الصحيح»[١].

« وبالوالدين إحساناً.. »

أصل النظم الكريم (وأحسنوا إحسانا بالوالدين)[٢] فحذف فعل الأمر (أحسنوا) وناب المصدر المؤكد للعامل المحذوف منابه فصار الكلام (إحسانا بالوالدين) وللاعتناء بشأن الوالدين قدم الجار والمجرور «بالوالدين» على المصدر «إحسانا» فصار «وبالوالدين إحسانا»[٣] وللاهتمام بهذه الوصية- أيضا جاءت بالأمر بالإحسان إليهما للترغيب فيه؛ ولأن الله- تعالى- أراد برهما والبر إحسان، والأمر به يتضمن النهى عن الإساءة إليهما كما يقول المتنبى:

إذا الجود لم يرزق خلاصا من الأذى
فلا الحمد مكسوبا ولا المال باقيا

أو أن الأمر وضع موضع النهى عن الإساءة إليهما للمبالغة والدلالة على أن ترك الإساءة فى شأنهما غير كاف بخلاف غيرهما»[٤] أى أن المقصود أن يكون الإحسان إحسانا كاملاً لا إساءة فيه، ويتضح وجه ذلك أكثر من قول ابن عباس - رضى الله

---

(١) ١٢٣٠، ١٢٣١ جـ٣ بتصرف من (فى ظلال القرآن). سيد قطب .
(٢) ١٣٢ جـ٧ الجامع لأحكام القرآن للقرطبى .
(٣) سيأتى مزيد تفصيل لتوضيح سر بلاغى آخر فى هذا التقديم..
(٤) ١٣٨ جـ٤ تفسير البيضاوى.

عنهما: « يريد البر بهما مع اللطف ولين الجانب فلا يغلظ لهما فى الجواب، ولايحد النظر ولايرفع صوته عليهما بل يكون بين يديهما مثل العبد بين يدى سيده تذللاً لهما »[١] .

وهنا ملاحظة لطيفة وهى: أن الوصية بالوالدين فى القرآن جاءت عقب النهى عن الشرك بالله سواء كان هذا النهى تصريحاً أو تضميناً، كما أن كل هذه الآيات التزم صيغة « بالوالدين إحسانا » أو «بوالديه إحساناً» أو «حسناً» ففى سورة الأحقاف[٢] وهى أول آية نزلت بشأن الوالدين: «إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون * أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون * ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً.. »[٣] وفى سورة لقمان : «وإذ قال لقمان لابنه - وهو يعظه - يابنى لاتشرك بالله؛ إن الشرك لظلم عظيم ووصينا الإنسان بوالديه - حملته أمه وهنا على وهن. وفصاله فى عامين أن أشكر لى ولوالديك إلى المصير - وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً ، واتبع سبيل من أناب إلى .. »[٤] وفى سورة العنكبوت. «والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون * ووصينا الإنسان

---

(١) ٥٤ جـ٨ روح المعانى ...

(٢) رتبت هذه الآيات حسب ترتيب النزول.

(٣) ١٣ ، ١٤ ، ١٥ سورة الأحقاف .

(٤) ١٣ ، ١٤ ، ١٥ سورة لقمان .

بوالديه حسناً..»[١] وفى سورة الإسراء : « وقضى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً..»[٢] وفى سورة الأنعام فى الوصايا العشر موضوع الدراسة : «قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم أن لاتشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً..»[٣] وفى سورة النساء: «واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً..»[٤] وفى سورة البقرة وهى آخر آية نزلت بشأن الوالدين وفى شأن أخذ الميثاق على بنى إسرائيل : « وإذا أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لاتعبدون إلا الله، وبالوالدين إحساناً..»[٥].

ما السر البلاغى فى هذا النظم :**أولاً** : فى الوصية بالوالدين عقب الوصية بعدم الشرك بالله؟ **وثانياً**: فى التزام هذه الصيغة فى الوصية بالوالدين بتقديم الجار والمجرور « بالوالدين أو «بوالديه» على المصدر «إحسانا» أو «حسناً» مع تكرير هذه الوصية وهذه الصيغ؟

أما أولاً: فمجئ الوصية بالوالدين عقب النهى عن الشرك بالله صراحة أو تضميناً ، أو عقب الأمر بعبادته -تعالى- وحده لاشريك له؛فلينبه - سبحانه- النفوس إلى أهمية الوصية بالوالدين والإحسان إليهما؛ حيث إنها تجئ عقب أعظم وصية أو عقب أساس

---

(١) ٧ ، ٨ سورة العنكبوت .

(٢) ٢٣ سورة الإسراء .

(٣) ١٥١ سورة الأنعام .

(٤) ٣٦ سورة النساء .

(٥) ٨٣ سورة البقرة.

الوصايا ألا وهى (عدم الشرك بالله) الذى هو العمود الفقرى للإيمان والأعمال لأن التوحيد أساس كل عمل صالح، فالوصية بالوالدين إذا جاءت عقب الأهم الذى هو أول الوصايا أو أساسها فذلك مؤشر على أهمية الوصية بالوالدين: نظراً لتعبهما فى رعايته من كل منهما، وحمله وولادته وتربيته والسهر عليه، وإيثاره عليهما- وأيضا- كما أن الله- تعالى- هو خالق الإنسان فالوالدان سبب أو واسطة لتنفيذ إرادة الله بخلقه، إذ لم يخلقه الله، ولم يخلقهما عبثا بل للإخلاف فى الأرض لإعمارها لإنفاذ أمر الله وإرادته كما فى الآية الكريمة: «وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال: إنى أعلم مالاتعلمون»[1] والأخلاف فى الأرض لايكون إخلافاً صحيحاً إلا بطريق صحيح وهو الإحسان إلى الوالدين، والوصية بالأولاد لينشأ المجتمع الصحيح؛ لهذا لزمت الوصية بهما فى هذه المرتبة لإعطائهما أهمية واهتماماً، كما أن قدرة الخالق فى خلق الإنسان. من ماء مهين بوساطة الوالدين يؤكد أنه سبحانه .. واحد فى ذاته وأفعاله وأقواله وإلا كان هناك من ينازعه هذا الخلق فيفسد الكون، وصدق الله العظيم «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا فسبحان الله رب العرش عما يصفون»[2] وصدق الله «ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون»[3].

---

(١) ٣٠ سورة البقرة.

(٢) ٢٢ سورة الأنبياء.

(٣) ٩٠ ، ٩١ المؤمنون .

أما ثانياً: فيحتمل أن يكون السر البلاغى أو الحكمة الالهية التى اقتضت هذه الصياغة الواحدة وهى تقديم الجار والمجرور «بالوالدين» أو « بوالديه» على المصدر إحساناً» أو «حسناً» يحتمل الآتى :

أ- تقديم الجار والمجرور « بالوالدين» « بوالديه» لإبراز الاهتمام بالوالدين سواء كان التقديم على المصدر «بالوالدين إحساناً» أو على أصل التعبير : «بالوالدين أحسنوا إحساناً» ففى هذا التقديم تأكيد للإحسان إليهما وتقويته، بل فيه تأكيد فوق تأكيد بالقصر بالتقديم والغرض من هذا القصر هو المبالغة فى هذا الإحسان وكأنه لا إحسان إلا إليهما لما لهما من فضل - كما تقتضيه مبالغة القصر بالتقديم .

ب- ولما كان تعلق الجار والمجرور بالمصدر أبلغ من تعلقه بالفعل - لأن المطلوب هو الإحسان المطلق إلى الوالدين علقه بالمصدر؛ حيث إنه مطلق عن الزمن؛ إذ أن حدثه صالح لكل الأزمنة، وكأنه - تعالى - يقول : (أحسنوا إلى الوالدين فى كل الأوقات) حتى لايتعلل أحد بانشغاله عن الوالدين فالمطلوب هو الإحسان المطلق إليهما؛ لهذا كان من المتناسب والأبلغ هو تعلق الجار والمجرور بالمصدر مع تقديمه عليه «وبالوالدين إحساناً» ولاغرو - بعد هذا البيان - إذا ذكر بهذه الصيغة مع تكراره.

جـ- يحتمل - أيضا - أن يكون السر البلاغى الدافع إلى ذلك هو إشاعة لفظ «الإحسان إلى الوالدين» بين المؤمنين بلفظ أسرع وأخف على الألسنة؛ ليسهل تداوله وتطبيقه وحتى تصير هذه

الوصية كالمثل السائر إذ فرق بين عبارة «بالوالدين إحساناً» الشبيهة فى سرعة تداولها بعبارة : « رفقاً بالقوارير» وبين عبارة: «أحسنوا إحساناً بالوالدين» أو (أحسنوا بالوالدين إحسانا)..

أما تكرار الوصية بالوالدين : وبهذه الصيغة- فليحفر فى ذهن السامعين تلك الوصية فلا ينسوها؛ إذ أن التكرار أسلوب تربوى سليم جرى فى اللغة العربية وآدابها ، وفى القرآن الكريم كثيراً للتأكيد علي المطلوب ولفت الأنظار إليه وتفتيح القلوب والعقول له والتأثير به فى النفس ولاغرو فقد اعترف به أعداء القرآن - دون أن يدروا-؛ إذ نرى أحد علماء النفس والاجتماع يشيد بفضل التكرير وتأثيره فى النفوس؛ إذ يقول: «للتكرير تأثير فى عقول المستنيرين وتأثيره أكبر فى عقول الجماعات من باب أولى ، والسبب فى ذلك كون المكرر ينطبع فى تجاويف الملكات اللاشعورية التى تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان ، فإذا انقضى شطر من الزمن نسى الواحد منا صاحب التكرار ، وانتهى بتصديق المكرر؛ إذ أن الشئ إذا تكرر رسخ فى الأذهان رسوخاً ينتهى بقبوله حقيقة ناصعة»(١).

« ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم".

النهى هنا عن قتل الأولاد معطوف علي النهى عن الإشتراك بالله وعدم الإساءة إلى الوالدين-ويلاحظ أن النهى عن قتل الأولاد

---

(١) ١٣٩ روح الإجتماع د. جوستاف لوبون . ترجمة أحمد فتحى زغلول - المطبعة الرحمانية.

من إملاق جئ به عقب الأمر بالإحسان إلى الوالدين ، ولم يؤخر هذا النهى ليعطف على النهى عن قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق فيكون من عطف الإلف على إلفه لو قيل -مثلا- حاشا لله- (ولاتقتلوا النفس التى حرم الله... ولاتقتلوا أولادكم من إملاق) فيكون عطف خاص علي عام لمزيه فى الخاص، ولكن النظم العزيز جاء معقبا علي النهى عن الإساءة إلى الوالدين بالنهى عن قتل الأولاد للفقر أو خشية الفقر دون أن يؤخر إلى النهى عن قتل النفس التى حرم الله قتلها ... لحكمة إلهية ولسر بلاغى فما الحكمة أو ما السر فى ذلك ؟

من يدقق النظر يجد أن المناسبة موجودة - هنا- وهى أدق وأولى من مناسبة قتل النفس التى حرم الله ؛ لأن الغرض هو إرادة إصلاح الأسرة التى هى أساس المجتمع الصالح والتى تتكون من الأب والأم والأولاد؛ ولأن الوالدين هما أصل الإنسان الموصى فيناسب الوصية بهما أن يعقب بعدها بالوصية بالنهى عن قتل الأولاد وهم فروع عن هذا الأصل وإذا كان هذا هو الغرض فتكون مناسبة إصلاح الأسرة أولى من التأخير إلى النهى عن قتل النفس التى حرم الله .. وأوقع فى العقل والقلب وأكثر تأثيراً فى النفس - أما لوجئ بالوصية بعدم قتل الأولاد عقب النهى عن قتل النفس التى حرم الله» لما كان هناك إشعار بالاهتمام بهذا الترابط الأسرى ، وعلى كل فإن الوصية بعدم قتل الأولاد كأنها ذكرت مرتين؛ لأنها تدخل- أيضا- فى الوصية بعدم قتل النفس التى حرم الله .. التى هى عام ذكر بعد خاص لمزية فى الخاص وهو الأولاد حفاظاً علي هذا الترابط الأسرى وكأن الإسناد حصل مرتين وفى ذلك تأكيد أى

تأكيد على عدم قتل الأولاد ، وهذا كقوله -تعالى- عن الأنعام « ..وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون »[1] فإن منفعة الركوب والأكل من الأنعام أمر خاص وقد عطف عليه عام هو المنافع والمشارب وذلك للاهتمام بالخاص ؛ لأنه أبرز المنافع وأكثرها للإنسان .

أما لماذا جاء النهى عن قتل الأولاد بلفظ النهى الصريح دون الأمر بالإبقاء عليهم ؛ لأن هذه جريمة شنعاء بل أشنع أنواع القتل؛ لأنها إن دلت على شئ فإنما تدل على انتزاع الرحمة والشفقة من ينبوعهما الإنسانى الأول هو قلب الأب مهما كان الدافع إلى ذلك القتل لهذا استوجب الحال التشنيع بأصحاب القلوب القاسية على أولادهم ، ولا أدق ولا أدل على ذلك من التصريح بلفظ النهى الصريح عن قتل الأولاد « ولاتقتلوا أولادكم من إملاق » ولو جئ بلفظ الأمر - حاشا لله - (وابقوا على أولادكم) - مثلا - لخلا النظم الكريم من هذه القوة فى التشنيع ولضعف الجزم والحسم فيه ، بل ربما يشعر الأمر بالإبقاء بأن قتلهم كان مباحاً ثم عدل عن إباحته بالأمر (ابقوا..) فكانت الدقة والإحكام والبلاغة فى التنزيل العزيز الذى « لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد »[2].

---

(١) ٧٢ ، ٧٣ سورة يس ..

(٢) ٤٢ سورة فصلت ...

*أما لماذا كان نظم الكلام- هنا- «من إملاق» وفى سورة الإسراء «خشية إملاق» فكما يقول الفيروز آبادى: لأن التقدير (من إملاق بكم نحن نرزقكم وإياهم) وفى (سبحان) (خشية إملاق يقع بهم نحن نرزقهم وإياكم)[1] وتوضيح ذلك أنه فى سورة الأنعام الخطاب للفقراء بدليل قوله- تعالى- « من إملاق » فاقتضت البلاغة تقديم وعدهم- أعنى الآباء المملقين بما يغنيهم من الرزق «نحن نرزقكم» واقتضت البلاغة تكميل المعنى بوعد الأبناء بعد وعد الآباء «وإياهم» وفى سورة بنى إسرائيل (الإسراء) الخطاب للأغنياء بدليل قوله - تعالى «خشية إملاق » فإنه لايخشى الفقر إلا الغنى، أما الفقير ففقرة حاصل فاقتضت البلاغة تقديم وعد الأبناء بالرزق «نحن نررقهم» ليشير هذا التقديم إلى أنه- سبحانه - هو الذي يرزق الأبناء ، ليزول ماتوهم الأغنياء من أنهم بإنفاقهم على الأولاد يصيرون إلى الفقر بعد الغنى، ثم كمل هذه الطمأنينة بوعدهم بالرزق بعد وعد أبنائهم»[2] أى يريد القرآن الكريم أن يطمئن الناس جميعاً فقيرهم وغنيهم إلى أن الرزق مكفول لهم جميعاً فقراء وأغنياء إذا أرادوا قتل أولادهم بسبب الفقر الواقع بهم فعلاً، أو خشية وقوعه.

وأرى : أنه نظراً لعدم وجود إشارة إلى مخاطبة الفقراء فى آية الأنعام، أو الأغنياء فى آية الإسراء -أرى أن القرآن الكريم -هنا-

---

(١) ٩٩٩ بصائر ذوى التمييز - المجلد الأول : هدية منبر الإسلام رجب ١٤٠٧ هـ.

(٢) ٢٧١ جـ٣ إعراب القرآن وبيانه للأستاذ محيى الدين الدرويش طبع ونشر دار ابن كثير - دمشق ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

فى الأنعام يريد أن يشدد النكير عليهم فى موطن الرد عليهم فيما حرموه من عند أنفسهم فى الزروع والثمار والأنعام فلا أهون عليهم- أيضا- كما حرموا من عند أنفسهم مالم يحرمه الله - أن يقتلوا أولادهم وبخاصة أنه نعى عليهم فى خلال تلك الآيات السابقة على آيات الوصايا - قتل أولادهم إذ قال : « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله مافعلوه فذرهم ومايفترون»[1] وقال -تعالى- ناعيا عليهم أيضاً - ذلك « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا مارزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وماكانوا مهتدين»[2] فكأنه - تعالى - يقول لهم : (لاتقتلوا أولادكم) حتى لو أصابكم الإملاق فعلا وافترشتم التراب بسبب عبء الأولاد ولاتتجرء واعلى ذلك كما تجرأتم على تحريم مالم يحرمه الله فى الزروع والثمار والأنعام؛ ولهذا قدم -هنا- فى الأنعام ضمير المخاطبين (الآباء) علي ضمير الأولاد «نرزقكم وإياهم» أى أن رزقكم مكفـــول أنتم وأولادكم ؛ فليس أولادكم سبباً فى الفقر أما فى سورة الإسراء فالحال هناك على مجرد الإرشاد والنصيحة كما يفهم من سياق الآيات من أول قوله - تعالى- «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه... »[3]؛ ولهذا ناسب قوله: «خشية إملاق» أى وإن خفتم مجرد خوف من الفقر بسببهم فلا تقتلوهم؛ ولهذا قدم ضمير الأولاد «نحن نرزقهم وإياكـــم» أى أن

---

(١) ١٣٧ سورة الأنعام .

(٢) ١٤٠ سورة الأنعام.

(٣) من ٢٣ إلى ٣٩ سورة الإسراء.

رزقهم مكفول من الله- تعالى- فلا تخشوا فقرا تعزونه إليهم - ولعل مما يؤيد ذلك- أيضا أن سورة الإسراء سابقة فى النزول على سورة الأنعام(١).

فربما لم يرتدعوا عن قتل الأولاد خشية من الفقر على الرغم من نزول النهي عن قتلهم فى سورة الإسراء «ولاتقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم» وتمادوا فى عدم إيمانهم وعدم انتهائهم من تلك الفعلة الشنيعة فنزلت آيات سورة الأنعام مشددة النكير عليهم وقالت لهم: «ولاتقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم..» أى حتى لو نزل الفقر بكم فعلاً وليس أن تخشوا مجرد نزوله فقط فالتشديد عليهم فى آية الأنعام لاريب أنه مناسب آنئذ للمقام .

ولتأكيد أن الرزق مكفول من الله -تعالى- للآباء والأبناء معاً ، وأن الأولاد ليسوا سبباً فى الفقر جاءت (صياغة ضمان الرزق) بطريق القصر بتقديم المسند إليه وهو الفاعل الخالق للرزق على فعل الرزق « نحن نرزقكم» « نحن نرزقهم» وهو قصر حقيقي تحقيقي لايحتمل ادعاء ولا إضافة ففيهما قصر الرزق على المتكلم (نحن) وهو الله- تعالى- لأن الله وحده « هو الرزاق ذو القوة المتين(٢) » وذلك مثل: (لاينير الدنيا نهارا إلا الشمس) ومثل: (لا إله إلا الله) وهذه العبارة: « نحن نرزقكم» لبيان العلة فى

---

(١) ترتيب سورة الإسراء فى النزول ٥٠ ١ وترتيب الأنعام ١١٠ وكل منهما مكية..

(٢) ٥٨ سورة الذريات.

النهى عن قتل الأولاد ولأهميتها جاءت فى سورة الإسراء معترضة بين المتلازمين: الجملة التى دلت على السؤال ، وجملة الجواب «ولاتقتلوا أولادكم خشية إملاق، نحن نرزقهم وإياكم- إن قتلهم كان خطأ كبيراً»[1]، فكأن سائلا- من سفها ، الجاهلية - بعد سماعه هذا النهى الصريح- سأل متردداً : لماذا هذا الاهتمام الكثير بالوصية بعدم قتل الأولاد فجاء قوله: «إن قتلهم كان خطأ كبيراً» إجابة عن هذا السؤال المقدر الناشئ عن جملة النهى، وهذا الجواب علة أخرى للنهى عن قتل الأولاد ، ولإزالة الشك والتردد من نفس هذا السائل أكدت الإجابة عليه : « إن قتلهم.. » فبين الجملة الدالة على السؤال وهى جملة النهى «لاتقتلوا أولادكم» وجملة الجواب «إن قتلهم كان خطأ كبيراً» شبه كمال اتصال وكأنهما لتلازمهما شئ واحد «ولا تقتلوا أولادكم .... إن قتلهم كان خطأ كبيراً»..

« ولاتقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن.. »[2]

أرى: أنه جمع (الفواحش) هنا؛ ليشمل الزنا وما أشبهه من اللواط وإتيان البهائم ثم بدليل أنه لم يرد النهى عنهما فى القـــرآن

---

(١) ٣١ سورة الإسراء..

(٢) (الفواحش) من المفسرين من فسرها بالآثام الكبيرة كالزنا والسرقة والقتل بغير حق .. كالبيضاوى ١٣٨ جـ٤ ومنهم من فسرها بالزنا خاصة كالألوسى فى روح المعاني ٥٤ جـ٤ وإلى هذا الأخير تميل النفس لما يأتى :

أ- ورد فى وصايا سورة الأنعام النهى عن الشرك بالله والقتل وغيرهما من الكبائر ، ولم تنص على الزنا بهذه الحروف، ولا يعقل أن تخلو هذه الوصايا من النهي عن الزنا وبلفظ خاص به مع أنه كبيرة من الكبائر.

ب- ورد النهى عنه بآية خاصة موصوفاً بنفس الوصف فى وصايا سورة الإسراء (٣٢) وفى الترتيب نفسه « ولاتقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً» =

الكريم إلا فى الأول ولكن فى عرض قصة قوم لوط- عليه السلام - كقوله- تعالى- على لسان لوط لقومه:«أتأتون الذكران من العالمين * وتذرون ماخلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون»[1] *.

وقوله - تعالى- « .. ولوطا إذ قال لقومه: أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون *أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم

= وفى (الشورى) ٣٧ « والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون» وفى (النجم) (٣٢) «والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللم إن ربك واسع المغفرة..» فذكر كبائر الإثم وهو عام وعطف عليه خاصاً هو (الفواحش) مما يدل على أنها شئ خاص استوجب انفراده بذكره بعد دخوله فى العام (كبائر الإثم) .

جـ- أن قوله -تعالى- «ماظهر منها ومابطن» مناسب لجريمة الزنا؛ إذ كان سفهاء الجاهلية يمارسونه علنا فى الحوانيت وفى بيوت البغايا وكانوا يعتقدون أن المحرم منه ماكان علنا..

د- لو كان المراد بالفواحش عامة الذنوب، أو الذنوب الكبيرة لكان فى الكلام تكرار لا فائدة منه؛ إذ يدخل فيها جميع المحرمات الواردة فى هذه الوصايا وعطف النهى عن الفواحش على ماسبق يستلزم مغايرته لها، وعطف مابعد هذا النهى عليه يؤكد أن المعطوف لايوصف بالفاحشة فدل ذلك كله على أن الفواحش المراد بها الزنا وما أشبهه. والله أعلم ولعل هذا هو ماجعل الأستاذ سيدقطب يقول فى تفسيرها: « والفواحش» كل ما أفحش- أى تجاوز الحد- وإن كانت أحيانا تختص بنوع منها هو فاحشة الزنا» ١٢٣١ جـ٣ فى ظلال القرآن.

(١) ١٦٥ ، ١٦٦ سورة الشعراء.

قوم تجهلون» *(١) وقوله -تعالى- «إنكم لتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين»(٢).

والنهى عن القرب من الفواحش : أبلغ من النهى عن ممارستها لأن النهى عن القرب أبلغ فى التحذير من النهى عنها؛ لأن القرب من الشئ مظنة الوقوع فيه»(٣) وبخاصة فى هذه الجريمة الشنعاء (الزنا وأشبهه) ؛ لأن القرب من أسبابها يفرى بالوقوع فيها وهذا يعنى عدم القرب من أسبابها- أيضا- أو بعبارة أخرى : النهى عن القرب منها كناية عن النهى عن ممارستها؛ لأن هذا النهى يستلزم النهى عن ممارستها بطريق أولى؛ لأن الشئ الذى يمارس لابد فيه - أولاً - من الاقتراب منه ثم ممارسته ثانيا؛ فإذا نهى عما هو أولاً فلا يقع مايكون ثانياً بطريق أولى، وهذا أبلغ من النهى عنها صراحة (ولاتلابسوا الفواحش) ؛ لأن الكناية دعوى مصحوبة بالبينة، وهذا شبيه بالأمر باجتناب الخمر وما أشبهه فى قوله - تعالى- «ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون»(٤) فلم يقل - سبحانه - (لاترتكبوا هذه الآثام) ولكن قال : (اجتنبوها) ؛ إذ يستلزم من الاجتناب عدم ارتكابها بطريق أولى ، ولو أنه نهى عن الممارسة صراحة لخلا الكلام العزيز - حاشا لله -تعالى- عن هذا الدليل

---

(١) ٥٤ ، ٥٥ سورة النمل .

(٢) ٢٨ سورة العنكبوت .

(٣) ١٥٩ جـ٨ التحرير والتنوير ..

(٤) ٩٠ سورة المائدة .

الأولوى، وربما يفهم منه أن القرب منها لايؤدى إليها ؛ ولهذا كان التعبير القرآنى فيه احتراس بليغ واحتياط لابد منه؛ لئلا يكون هناك أدنى احتمال للإباحة، ويؤخذ منه - أيضا- النهى عن مغريات الفواحش من وسائل التجميل المختلفة والملابس الفاضحة، واختلاط الجنسين، وما إلى ذلك بدعوى التحضر والمعاصرة ، وبهذا يكون فى هذا التعبير القرآنى - أيضا مايعرف فى البلاغة باسم إيجاز القصر وهو أبلغ وأوجز أنواع الإيجاز الثلاثة ...

« ما ظهر منها ومابطن» :

يبدو أنه - كما « روى عن الضحاك وابن عباس : كان أهل الجاهلية يرون الزنا سراً حلالا ويستقبحونه فى العلانية فحرم الله الزنا فى السر والعلانية »[1].

وقدم « ماظهر منها » على «مابطن» وإن كان كل منهما جريمة شنعاء إلا أن ما ظهر أكثر فحشا؛ إذ فيه مجاهرة بالذنب وتحريض وتشجيع عليه ، إلى جانب التجرد من الحياء ، فلزم تقديمه لذلك.

« ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق» :

هذا النهى معطوف على ماسبق ، و (أل) فى (النفس) لتعريف الجنس فيفيد استغراق الأفراد[2] يعنى : كل نفس حرم الله قتلها، والمراد بالنفس هنا - الروح « ومعنى قتل النفس أن نفصل

---

(١) ١٦٠ جـ٨ التحرير والتنوير .

(٢) ١٣٣ جـ٧ القرطبى.

الروح عن المادة بهدم البنية ، وهذا غير الموت؛ لأن الله هو الذى يميت النفس، أما الإنسان فهو يقتل النفس إن هدم بنيتها.. »[١] ؛ ولهذا فإن المعنى فى النهى عن قتل النفس النهى عن قتل الجسد المتعلقة به وليس قتلها هى، وعليه ففى «النفس» مجاز مرسل علاقته الحالية : حيث عبر بالحال وهو النفس وأراد المحل وهو الجسد الذى حلت به، وذلك أبلغ من إيقاع القتل على الجسد؛ لأن الجسد لا عبرة به ولاحياة له إلا بالنفس (الروح) - وأيضا- ليتيقن السامع أن المراد هو إزهاق الروح، ولهذا أوقع القتل على النفس «ولاتقتلوا النفس» ففيه احتراس عن أن يظن بالقتل القتل مجازاً بمعنى الضرب فهو مستعمل عربية؛ إذ يقال : قتلت فلانا فقتلنى.

أما وصف هذه النفس «بالتى حرم الله» فهو لتأكيد التحريم بأنه تحريم قديم؛ فإن الله حرم قتل النفس من عهد آدم وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على احترام هذه النفس ولهذا يجوز أن يكون معنى «حرم الله» جعلها الله حرماً أى شيئاً محترما لايعتدى عليه»[٢] كقوله تعالى: إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها»[٣] والقتل بالحق هو ماحدده الشرع كما فى الردة والقصاص وقطع الطريق....

وفى هذه الجملة : «ولاتقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق» إيجاز بليغ بالحذف، ويشبهه قولهم: (لاتأخذ الدواء بأمر الطبيب ،

---

(١) ٣٩٨٨ ، ٣٩٨٩ جـ٥ الشيخ الشعراوى فى تفسيره..

(٢) ١٦١ جـ٨ التحرير والتنوير .

(٣) ٩١ سورة النمل..

أصله : لا تأخذ الدواء إلا دواء مباحاً بأمر الطبيب فالمستثنى منه هو: جنس الدواء، والمستثنى هو الدواء المباح بأمر الطبيب، كذلك فى الآية الكريمة المستثنى منه هو: جنس النفس.. والمستثنى هو : النفس التى أحل الله قتلها بالحق، أى بسبب الحق فالباء للسببية، وأصل الكلام : ولاتقتلوا النفس التى حرم الله قتلها إلا نفسا أحل الله قتلها بالحق، وفى ذلك - كما قلت- إيجاز بليغ بالحذف دلت عليه قرينة السياق وهذا الحذف للبعد عن الملل والركاكة بسبب التكرار غير المقبول كما هو واضح.

« ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون»

اسم الإشارة لمجموع ماتقدم ذكره من الوصايا، ولذا جاء مفرداً «ذا» باعتبار لفظ كلمة «مجموع» ولكن لماذا لم يقل (أولئكم) بالجمع؟ فى ظنى أن الإشارة بالمفرد فيها إيحاء بأن جميع الوصايا هى كالشئ الواحد يجب تنفيذها جميعاً كأنها وصية واحدة ، فلا يهتم ببعضها ويهمل بعضها الآخر ، لأن الإيمان بها وبتطبيقها شئ واحد، وقد ألحق به لام البعد لإبراز أو تفخيم مكانة المشار إليه وهو الوصايا المتقدمة الذكر بإنزالها منزلة بعيد المكان فى الوضوح أو الظهور الحسى الذى لاتنكره حواس الإنسان الظاهرة، وللزيادة فى التفخيم والتوضيح ولتقريره فى النفوس ألحق به أداة خطاب جماعة الذكور « كم» غير مراد بها مخاطبون معينون ، بل موجه إلى كل من يصلح له الخطاب كأنه قال : (ذلك الذى سمعتموه) وربما يكون هذا للإشعار بأن هذه الوصايا عامة ومطالب بها جميع الناس.

و «لعل» للتوقع وليست للرجاء؛ إذ لايتأتى الرجاء من الله - تعالى- لعباده؛ لأنه يكون من الأدنى إلى الأعلى، أما - هنا- فمن

الأعلى إلى الأدنى، والذى رشحها للتوقع أن هذا التوقع حصل بعد أن أكدت هذه الوصايا وثبت أنها من الله - تعالى- فكان من المتوقع بعد هذا أن يعقلوا ويلتزموا؛ لأن الوصايا المتقدمة يقربها العقل السليم؛ لأنها- بداهة - من المسلمات- لو يعقلون - فلا يصح أن يلغوا عقولهم إزاءها ؛ إذ أن «العقل لو خلى لبحث هذه الوصايا الخمس الأولى بحثاً مستقلا عن منهج السماء لوجد أن ضرورة العيش على الأرض تتطلب وجود هذه الأشياء»[1] ، ولهذا قال فى ختامها «لعلكم تعقلون».

أما تكرير عبارة « ذلكم وصاكم به» فى آيات الوصايا «ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون» « ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون» «ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون» فللإشعار بتأكد هذه الوصايا وأنها وحى من الله -تعالى- وأن ماجاء فيها ليس من بنات أفكار محمد - صلي الله عليه وسلم - ولا من صنع أحد آخر من البشر لإزالة كل شك عنها، إلى جانب أن تكرارها يحفرها فى النفوس حفرا فتؤمن بها عن يقين ؛ إذ أن الشئ المكرر مرة بعد مرة ينطبع فى تجاويف العقل إلى درجة أن السامع قد ينتهى الأمر معه بتصديق المكرر فى الوقت الذى ينسى فيه صاحب التكرار من هو؟ وقد سبقت شهادة أحد علماء النفس والاجتماع غير المسلمين بأهمية التكرار وفعله المؤثر فى النفس[2].

---

(١) ٣٩٩١ جـ ٥ تفسير الشيخ الشعراوى.

(٢) راجع ص ٢٧.

***«ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده»:**

دخلت الوصايا الآن فى القسم الثانى منها وهو: مابه حفظ نظام التعامل بين الناس، وقد بدئ بالوصية بمال اليتيم؛ لأن حقه قد يغرى القيم عليه بأكله؛ لضعفه وعدم درايته بالأمور بخلاف الوصايا التى تليه فلا يتعلق منها شى بحق ضعيف، ومما يدل على أهمية هذه الوصية امتنان الله - تعالى - على رسوله- صلى الله عليه وسلم- إذ يقول : «ألم يجدك يتيما فآوى»(١).

وكما سبق فى قوله- تعالى - « ولاتقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن» النهى عن القرب -هنا- أيضا كناية عن ملابسة مال اليتيم والتصرف فيه بأى وجه من الوجوه صغيراً أو كبيراً ، وهذا أبلغ لأن التصرف فيه يسلتزم القرب منه أولاً فأطلق الملزوم وهو القرب وأريد اللازم وهو التصرف فى ماله ، فإذا نهى عن القرب من ماله فبالأولى النهى عن التصرف فيه؛ لأنه إذا نهى عما يكون أولا وهو القرب فلا يقع مايكون ثانيا بالضرورة ؛ فذلك دعوى مصحوبة بالبينة، كما أن النهى عن القرب فيه إشارة إلى النهى عن أخذ أى شئ منه قليلاً أو كثيراً، وفيه - أيضا- إشارة إلى أن الطمع فى مال اليتيم متوقع سهل الاستيلاء عليه؛ لأنه تحت يد غيره؛ ولذا لم ينه عن القرب فى غير مال اليتيم بل نهى عن أكله فى قوله -تعالى- «ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل»(٢)، أما النهى عن أكل أموال اليتامى مباشرة وصريحاً فى قوله -تعالى «ولاتأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً»(٣) فلضم أموال اليتامى إلى أمـــوال

---

(١) ٦ سورة الضحى ..

(٢) ١٨٨ سورة البقرة.

(٣) ٢ سورة النساء.

أوليائهم؛ ففى الضم اعتداء على أموالهم وجشع فى مال الضعيف فاستحقوا التشنيع والتقريع؛ ولهذا لايعقل أن ينهى الأولياء عن أن يقربوا هذه الأموال بل ينهاهم عن أكلها مع أموالهم؛ ولأنهم - كما يقول الزمخشرى - «إذا كانوا مستغنين عن أموال اليتامى بما رزقهم الله من مال حلال وهم على ذلك يطمعون فيها كان القبح أبلغ والذم أحق ، ولأنهم كانوا يفعلون كذلك فنعى عليهم فعلهم، وسمع بهم؛ ليكون أزجر لهم.. »(١).

* « إلا بالتى هى أحسن »

هذا استثناء: المستثنى منه هو جميع حالات التصرف فى مال اليتيم ، والمستثنى هو القرب، أو التصرف بالحالة التى هى أحسن، ونلاحظ -هنا- أن الصفة (التى هى أحسن) حلت محل الموصوف المحذوف (الحالة) ، وفيه -أيضا-إيجاز بليغ بالحذف دلت عليه قرينة السياق، والسر فى الحذف هو البعد عن الركاكة فيما لم يعتده العرب من مثل هذا التعبير لو قيل مثلا -حاشا لله - (ولاتقربوا مال اليتيم بأى حال إلا قربا بالحالة التى هى أحسن ؛ إذ أن «العرب التزموا حذف الموصوف فى مثل هذا التركيب واعتبروه مؤنثاً يجرى مجرى المثل ومنه قوله- تعالى- «ادفع بالتى هى أحسن السيئة»(٢) أى بالخصلة الحسنة ادفع السيئة »(٣).

---

(١) ٣٨٥ جـ١ الكشاف .

(٢) ٣٤ سورة فصلت .

(٣) ١٦٣ جـ٨ التحرير والتنوير - بل إنهم التزموا حذف صلة الموصول الواقع صلة فى مثل هذا - أيضا - فى قولهم « بعد اللتيا والتى» أى بعد الداهية الحقيرة والداهية الجليلة ومنه قول سلمى بن ربيعة الضبىّ : =

و «أحسن» -هنا- أفعل ليس على بابه من المفاضلة بل لمجرد الوصف الأصلى، والمعنى : إلا بالحالة الحسنة ، كقول امرئ القيس :

كأن صغرى وكبرى من فقاقعها
حصباء در على أرض من الذهب

فلا يقصد امرؤ القيس المفاضلة بين الكبير من الفقاقيع أو بين الصغير منها أو بين الصغير والكبير ولكن الغرض هو وصف هذه الحالة بتفخيم هذه الفقاقيع كبيرها وصغيرها لما لها من منزلة فى نفسه لحبه لمشهد الخمر آنئذ، كذلك فى الآية الكريمة؛ إذ ليس الغرض المفاضلة بين حالة حسنة وحالة أخرى أكثر حسناً وإنما الغرض هو معاملة مال اليتم بالحالة الحسنة على الأقل، وكيفية ذلك « أن يكون بما فيه صلاح ماله بحفظ أصوله وتثمير فروعه»[١]، وإنما لم يقل: (إلا بالتى هى حسنة تنبيها على أن يتحرى فى ذلك غاية التحرى ويفعل الأحسن»[٢] (إذا أمكنه) وأيضا- لتفخيم وتعظيم هذه المعاملة الحسنة لأهميتها بإعطائها صورة المفاضلة للاهتمام بها وأنها ضرورية فى تحقيقها، وحتى لو استطاع وليه أن يفعل الأحسن لكان أفضل..

= ولقد رأيت ثأى العشيرة بينها وكفيت جانيها اللتيا والتى ...
المرجع والصفحة نفسها ...

(١) ١٣٤ جـ٧ تفسير القرطبى .

(٢) ٢٧٧ جـ٣ إعراب القرآن وبيانه لمحيى الدين الدرويش .

* (حتى يبلغ اشده) :

حتى بمعنى إلى التى تعنى الانتهاء وهو هنا غاية الأشد أى التصرف فى ماله بالطريقة الحسنة إلى أن يبلغ هذا الحد، وقد نبه القرآن إلى ضابط هذا الحد فى قوله - تعالى « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم.. »[1] فجمع بين قوة البدن وهو بلوغ النكاح وبين قوة المعرفة وهو إيناس الرشد »[2] فكلمة الأشد - على قصرها - أو وجازتها كلمة جامعة فيها إيجاز بليغ بالقصر؛ إذ دلت على معان كثيرة لطيفة وهى أن يبلغ اليتيم حد القوة الجسمية والعقلية مع حسن التصرف فى ماله، ولاريب أن هذه الكلمة بمعانيها المعروفة لدي العرب أسرع إلى ذهن السامع من هذا التفصيل - والبلاغة الإيجاز.

*«وأوفوا الكيل والميزان بالقسط إلا نكلف نفساً إلا وسعها » :

وهنا- أيضا- جاءت الوصية بالأمر للترغيب فى هذا الإيفاء، وأيضاً لإشاعة هذه الفضيلة وغرسها فى النفوس بطريقة مباشرة ؛ لأن غرس الوفاء بالتنصيص على لفظه يجعله فى النفوس كالسجية تعتادها دون تكلف وكأنها جزء منها، وهذا أبلغ فى هذا المقام من الوصية بالنهى عن نقصان الكيل والميزان بدليل أن ماورد من ذلك فى القرآن جاء بصيغة الأمر وهو فى خمسة مواضع جميعها مصحوبة

---

(١) ٦ النساء .

(٢) ١٣٥ جـ ٧ القرطبى .

بكلمة القسط التى تعنى العدل، أو بكلمة القسطاس المستقيم[١]..

أما النهى عن إنقاصهما فقد ورد فى موطنين عقب فيهما بالأمر الأول قوله - تعالى - على لسان شعيب - عليه السلام لقومه: « ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره، ولاتنقصوا المكيال والميزان، إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط »[٢] لم يكتف بهذا النهى بل أعقبه بالأمر فى الآية التالية لهذه الآية مباشرة فى قوله -تعالى- «وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولاتبخسوا الناس أشياءهم»[٣] والثانى قوله -تعالى-« ..ألاتطغوا فى الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولاتخسروا الميزان»[٤] وإن دل هذا

---

(١) هذه الآيات هى :

١- « والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا فى الميزان، وأقيموا الوزن بالقسط ولاتخسروا الميزان» .. (الآيات ٦-٩ سورة الرحمن).

٢- «كذب أصحاب الأيكة المرسلين ، إذ قال لهم شعيب ألا تتقون ... أوفوا الكيل ولاتكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم» . (١٧٦- ١٨٣ - الشعراء).

٣- « وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً» ٣٥ سورة الإسراء ...

٤- «.. وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولاتبخسوا الناس أشياءهم ولاتعثوا فى الأرض مفسدين» .. ٨٥ سورة هود...

٥- «.. وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لاتكلف نفساً إلا وسعها» . (١٥٢ سورة الأنعام)..

(٢) ٨٤ ، ٨٥ سورة هود .

(٣) ٣٢٦ جـ١ الكشاف .

(٤) ٧ -٩ سورة الرحمن ...

على شئ فـإنما يدل على أن الأمـر فى هذا المقـام أبلغ لما تقـدم؛ ولذا يقـول الزمخشرى معلقـا على هذا التعقيب : «فإن قلت: النهى عن النقصان أمر بالإيفاء فما فائدة قوله؟ قلت: نهوا أولا عن عين القبيح الذى كانوا عليه من نقص المكيال والميزان لأن فى التصريح بالقبيح نعياً على المنهى وتعييراً له ثم ورد الأمر بالإيفاء الذى هو حسن فى العقول معرفا بلفظه لزيادة ترغيب فيه وبعث عليه»[1]. هذا إلى جانب أن فى اختيار الأمر بالوفاء اهتماماً به لتكون النفوس ملتفتة إلى جانب الوفاء لا إلى جانب ترك التنقيص، وفيه أيضا- تذكير لهم بالسخاء الذى يتمادحون به كأنه قبل لهم ؟ أين سخاؤكم الذى تتنافسون فيه؟ فهلا تظهرونه إذا كلتم أو وذنتم فتزيد واعلى العدل بأن توفروا للمكتال كرما بله أن تسرقوا حقه»[2] ولأجل هذا جاء الجار والمجرور «بالقسط» متعلقا بمحذوف حال مؤكدة من المخاطبين بطلب الوفاء لأن طلب العدل يتحقق بهذا الأمر فإذا جئ بقوله : «بالقسط » فذلك على التأكيد، والمعنى : أوفوا الكيل والميزان حال كونكم متلبسين بالقسط أو هى حال من المفعول أى أوفوا الكيل والميزان حال كونهما مقسطا فيهما أى تامين؛ ولذا فإن كلمة «بالقسط» لم ترد مع النهى لأنها لاتتأتى معه؛ إذ لا يعقل أن يقال (لاتنقصوا المكيال والميزان بالقسط).

وهنا ملاحظة دقيقة؛ إذ قد يقال - مثلاً- إذا كان النظم الكريم قد حرص على هذا الإيفاء فى الكيل والميزان بهذه الصورة (.. أوفو .. بالقسط) فلم لم يقدم فيه المتعلق (بالقسط) على طلب

---

(١) ٣٢٦ جـ١ الكشاف .

(٢) ١٦٥ جـ٨ التحرير والتنوير ..

الوفاء كأن يقال - مثلا- حاشا لله - (بالقسط أوفوا..) حتى يكون فى ذلك تقوية وتأكيد على الإيفاء أو قصره عليه قصراً بالتقديم للمبالغة فى ذلك كما ورد فى قوله -تعالى- بعد ذلك «وإذا قلتم فاعدلوا» وقوله : «وبعهد الله أفوا» ؟

الجواب عن ذلك : أنه لو قدم «بالقسط» على عامله لأشعر ذلك بوجوب الإيفاء التام بالشعرة والذرة ويكون فى ذلك تكليف للبشر بما فوق طاقتهم؛ إذ أن التقديم يستدعى ذلك، ولهذا جاء قوله -تعالى- «لانكلف نفساً إلا وسعها» موضحاً ومؤكدا ذلك لأن الوفاء التام فى الكيل والميزان بالدقة المتناهية - بقدر طاقة البشر - يصعب تحقيقه، بل المطلوب هو العدل بما فى ظن وإمكان البشر أى «أن هذا الأمر إنما هو فيما يقع تحت قدرة البشر من التحفظ والتحرز، وأما مالا يمكن الاحتراز عنه من تفاوت بين الكيلين ولايدخل تحت قدرة البشر فمعفو عنه»[1] فهذه العبارة «لانكلف نفساً إلا وسعها» احتراس لطيف عن تكليف البشر بما فوق طاقتهم حتى لايؤدى ذلك إلى تنفيرهم من التعامل فيما بينهم تحرزاً من ارتكابهم أخطاء فى التعامل بالكيل والميزان فتتعطل مصالح الناس وتقف مسيرة الحياة حيث لايستطيعون الوفاء التام الذى لاوفاء بعده، ولكن المطلوب هو الوفاء بقدر اجتهادهم، ومن اجتهد و أخطأ فله أجر، ومن اجتهد و أصاب فله أجران؛ ولذا فإن المتذوق المدقق فى هذه العبارة يحس تعليلاً واضحاً لعدم إمكان البشر ذلك على وجه الدقة وكأنه قال: (أوفوا الكيل والميزان بالقسط الذى فى إمكانكم لأننا لانكلف نفساً

---

(١) ١٣٦ جـ٧ تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ..

إلا وسعها) ولكونها تعليلاً لذلك فقد فصلت عن جملة «أوفوا الكيل والميزان بالقسط» لكونها جوابا معللاً لسؤال مقدر نشأ عن جملة طلب الوفاء، بل هو فى ظنى سؤال تعجبى وهو: كيف يمكن للبشر الوفاء بالكيل والميزان بالقسط؟! فجاءت الإجابة: «لانكلف نفساً إلا وسعها» وكأنه استثناء فبينهما شبه كمال اتصال لتلازمهما تلازم السؤال والجواب فكأنهما جملة واحدة، ولهذا فلايمكن تعاطفهما لإشعار العطف بالتغاير بينهما؛ وربما يؤكد رخصة الإيفاء بقدر طاقة البشر- أيضا- هذا الالتفات من الغيبة فى قوله: «ماحرم ربكم عليكم» إلى التكلم فى قوله: «لانكلف..» فإن ضمير التكلم يوحى أكثر بمشروعية هذا الترخيص من المتكلم حيث إنه هو المشرع وكأن الله- تعالى يقول لهم: أنا الذى أشرع لكم؛ أكلفكم الإيفاء ... بقدر طاقتكم رحمة بكم فلا تخشوا التعامل فيما بينكم.

* أما تقديم المعمول: على عامله فى قوله تعالى: «إذا قلتم فاعدلوا» وفى قوله تعالى: «وبعهد الله أوفوا»؛ فلأن ذلك على سبيل الوجوب التام والتأكيد؛ لأنه فى طوق البشر ولهذا ليم وتوعد بالعقاب من لم يوف بهما [1] أما توعد الله المطففين فى الكيل والميزان؛ فلأنهم تعمدوا أن يأخذوا أكثر من حقهم إذا اشتروا بالكيل أو الميزان، أو ينقصوا حق غيرهم إذا باعوا لهم [2] ولو أنهم تحروا العدل - بقدر طاقة البشر لدخلوا تحت قوله تعالى- «لاتكلف نفسا إلا وسعها» وسبحان من هذا كلامه !!

---

(١) انظر مزيد تفصيل فى ذلك ص٥٤ .

(٢) فى قوله -تعالى- «ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون *، وإذاكالوهم أو وزنوهم يخسرون..» (١-٣سورة المطففين)

« وإذا قلتم فاعلوا ، ولو كان ذا قربى »

يرى بعضهم أن «التعليق بأداة الشرط فى قوله : «وإذا قلتم فاعدلوا» إشارة إلى أن المرء فى سعة من السكوت إذا خشى قول العدل»[١] وأرى أن ذلك بعيد كل البعد لأنه يتناقض مع قول الله - تعالى- «ولاتكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قبله»[٢] ولاندرى من أين له هذا مع أن (إذا) تفيد تحقيق المدخول عليه أى وقوعه بالقطع أو بعبارة البلاغيين :(الأصل فى إذا أن يكون الشرط فيها مقطوعا بوقوعه كما تقول : إذا زالت الشمس آتيك) فقطعاً ستزول الشمس، ولذا يقول البلاغيون: (وغلب لفظ الماضى مع (إذا) لكونه أقرب إلى القطع بالوقوع ويصير منه معها هو المستقبل[٣]، وفى قوله - تعالى: «وإذا قلتم فاعدلوا» القول بالعدل واجب وواقع قطعا بالأمر من الله - تعالى- «فاعدلوا» فلا يحتمل شكا أو ترددا أو جوازاً ؛ لأنه تكليف من الله - تعالى ولهذا قدمت (إذا) ومدخولها على عاملها الأمر «اعدلوا» ولذا جاءت الآية الكريمة منددة بمن يكتم القول بالعدل كما فى الآية السابقة : «ولاتكتموا الشهادة...» ويقول تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا

---

(١) الطاهر بن عاشور ١٦٧ جـ٨ التحرير فى التنوير.

(٢) ٢٨٣ سورة البقرة.

(٣) راجع حاشية الدسوقى ٣٩ جـ٢ شروح التلخيص وبغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدى ١٨٦ جـ١.

أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا »[1] ويقول تعالى: يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولايجر منكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون »[2] فلا يتحيز القائل بالعدل لهذا القريب، ولايخشى هذا الجبار ولايحيف على عدوه فى شهادة أو قضاء أو ما أشبه ذلك مما يدخل تحت القول بالعدل.

فلما كان التكليف بالقول بالعدل : -هكذا- فرضاً من الله- تعالى- جاء محقق الوقوع فناسب أن يدخل عليه (إذا) ولهذا فلا يمكن أبداً أن تحل (إن) مكان (إذا) فلا يقال- حاشا لله- (إن قلتم فاعدلوا) (إن قلتم فاعدوا) لأن (إن) - كما يقول البلاغيون (الأصل فيها أن لا يكون الشرط معها مقطوعا بوقوعه كما تقول لصاحبك : (إن تكرمنى أكرمك) تقول ذلك وأنت لاتقطع بأنه يكرمك ، ويبدو أن صاحب هذا الرأى فهم المعنى من (إذا) كما يفهم من (إن) فلم يفرق بينهما وهذا واضح البطلان، وعليه فليس فى «إذا قلتم» -كما يدعى - «إشارة إلى أن المرء فى سعة من السكوت إذا خشى قول العدل».

أما لماذا كان التعليق بالشرط فى القول بالعدل دون أن يعلق فى الأمر بالوفاء بعهد الله «وبعهد الله أوفوا » فلأن القول بالعدل متوقف على طلبه ممن هو فى حاجة إليه كالمظلوم- مثلاً- الذى يطلب الشهادة له، ولهذا فإن المعنى:(إذا طلبتم للقول بالعدل .. فاعدلوا) أما فى الوفاء بعهد الله فلا يتأتى هذا التعليق؛ لأن هذا

---

(١) ١٣٥ سورة النساء .

(٢) ٨ سورة المائدة.

الوفاء مقضى فيه وانتهى إيجابه من الله -تعالى- على عباده؛ فلا يقال: حاشا لله - إذا عاهدكم الله فأوفوا).

و مادام القول بالعدل قد طلب فإن هذا الطلب يستوجب عدم كتمان الشهادة أو القضاء أو الوصف أو غيرها مما يصدق عليه أنه قول بالعدل ولو مع القريب أو على النفس أو على الباطش الجبار الذى يخشاه ومع العدو مصداقا للآيات الكريمة السابقة.

وإذا كان المعنى على طلب القول بالعدل فكان الأصل أن يعلق عليه كأن يقال- مثلا- حاشا لله - « وإذا طلبتم - صراحة أو ضمناً - للقول بالعدل وقلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى) فلما ذا عدل عن التعليق على الطلب إلى التعليق على القول «إذا قلتم»..

أرى :أن ذلك يرجع إلى أبلغية قول الله تعالى: «وإذا قلتم فاعدوا..» عن «وإذا طلبتم للقول بالعدل فاعدلوا» وأرى أن أبلغية ذلك ترجع إلى ثلاثة أسرار بلاغية:

أ- أن الطلب قد يكون ضمنياً كما فى وصف البائع لسلعته فالتنصيص على الطلب قد يفهم منه أنه خاص بالطلب الصريح.

ب- للإيجاز البليغ؛ لأن ذكر الطلب يستوجب شرحاً كثيراً كما سبق[1]..

جـ- النفاذ مباشرة إلى المطلوب وهو القول الجامع: « إذا قلتم»؛ ليصف ذلك القول العام بالعدل ويؤكده فى نفس السامع؛ ليرسخ ويستقر فيها؛ ولهذا سلط الشرط عليه.

---

(١) مثل: (وإذاطلبتم للقول بالعدل - صراحة أو ضمنا وقلتم فاعدلوا).

* أما أبلغية التعبير : بالقول وتفضيله عن (شهدتم) أو (قضيتم) أو (وصفتم) ... فلأن التعبير به جامع عام يشمل كل مايصدق عليه أنه قول من (شهادة) أو (قضاء) أو (وصف مبيع) أو (نصيحة) أو (إخبار) أو (جرح) أو (تعديل) أو (مشاورة) أو (صلح بين الناس) أو (مؤاجرات) أو (وعود) أو (وصايا) أو (أيمان) أو (مدح).. الخ من كل المعاملات بين الناس التى تقتضى القول[1]، وتلك دقة لطيفة فى بلاغة القرآن: ففيه إيجاز بليغ بالقصر من النوع النادر: إذ لم يعهد فى الكلام العربى أن كلمة واحدة جامعة كهذه «قلتم» جمعت كل هذه المعانى.

* وأما تقديم المتعلق : «إذا قلتم» على عامله « اعدلوا » فليشعر بوجوب العدل التام لكونه فى طوق البشر لأن فى التقديم حصراً بقصر العدل على القول قصر قلب رداً علي من اعتقد عكس العدل (الظلم) أو مال إليه، أو قصر افراد لمن تذبذب فى قوله بين العدل تارة والظلم تارة أخرى.. ، ولهذا ليم من لم يعدل فى قوله من شهادة أو قضاء أو مدح ... الخ كما فى الآيات السابقة.

* وأما قوله : « ولو كان ذا قربى» :

فهو يحمل مبالغة لطيفة عظيمة فى الحكم؛ إذ أن الواو هى واو الحال والمعنى (وإذا قلتم فاعدلوا والحال أن القول متعلق بذى القربى)

و(لو) هذه لها سهم وافر فى تلك المبالغة فهى إما غائية بمنى (إن) الغائية للمبالغة فى الحكم وهو العدل المطلق حتى مع القريب

---

(١) ١٦٦ جـ٨ التحرير والتنوير.

فلا يجامل أو يصانع القائل قريبه لأنه قول لوجه الله - تعالى-
ولا مانع فى رأيى أن تكون (لو) هذه شرطية حذف جوابها حذفا بليغاً للدلالة عليه بما سبق - على رأى البصريين - ويكون أصل الكلام - والله أعلم - (وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى فاعدلوا كذلك).

وأرى: أن جعلها شرطية ابلغ لسببين :

أ- لأنه يكون فى ذلك توكيد وتقوية لطلب العدل؛ لأنه بمثابة إسناد هذا الطلب مرتين: مرة على سبيل الإطلاق ، ومرة مع القريب فكأن فيه ذكر خاص (العدل مع القريب) بعد عام (العدل مطلقاً) اهتماما بالخاص وتنبيها عليه ، والإسناد مرتين وذكر الخاص بعد العام أو العام بعد الخاص للاهتمام والتوكيد والمبالغة؛ انظر إلى قوله تعالى: إنا كل شئ خلقناه بقدر» [1] وذلك من باب الاشتغال، أى خلقنا كل شئ خلقناه بقدر، وقوله - تعالى- «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين» [2] اهتماما بشأن الصلاة الوسطى؛ لأن وقتها مظنة الكسل والنوم، وقوله -تعالى- فى الامتنان بنعمة الأنعام: «وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون، ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون» [3] من عطف العام (المنافع والمشارب) على الخاص (الركوب والأكل) لأنهما أبرز هذه المنافع وأقرب إلى رغبة الممتن عليهم .

---

(١) ٤٩ سورة القمر .
(٢) ٢٣٨ سورة البقرة .
(٣) ٧٢ ، ٧٣ سورة يس .

ب- أن هذا التقدير لهذا المعنى فيه إقناع للسامع بالعدل المطلق المؤكد؛ لأنه إذا نبه على القول بالعدل مع القريب الذى تحتمل مصانعته أو مجاملته بهذا التأكيد والاهتمام فيكون العدل مع غيره من باب أولى وبذلك يسد الطريق على الظلم سداً محكما..

* أما لماذا كان الكلام العزيز عن طلب العدل بصيغة الأمر «فاعدلوا» دون صيغة النهى (.. فلا تظلموا» - مثلا- فلأن القصد هو إشاعة العدل؛ لأنه هو المقصود فعبر عنه بلفظه المباشر؛ ليكون ذلك أوقع فى النفس وليشيع هذا المعنى بين الناس فيرسخ فى نفوسهم ويصير كالسجية فيهم؛ لأن العدل هو أساس الملك وأساس الحكم وعماد صلاح الحياة ، والسبيل إلى الصراط المستقيم وإلى الفوز بجنات النعيم ، ولايتأتى ذلك بهذه السرعة وتلك الميزات مع (فلا تظلموا) ، وربما يظن أن صيغة النهى هذه لاتشمل القول فى وصف مبيعه- مثلا- فصيغة الأمر أجمع وأمنع.

* «وبعهد الله اوفوا»

وعهد الله المأمور بالوفاء به « هو كل عهد فيه معنى الانتساب إلى الله الذى اقتضته الإضافة»[1] وجاء التعبير بالمصدر «عهد» دون الفعل فلم يقل - حاشا لله - «وبما عاهدتم الله عليه أوفوا» أو «وبما عاهدكم الله عليه أوفوا»؛ ليكون صالحاً للحدث فى أى زمان وقع ذلك العهد : ماض أو حاضرأو مستقبل ولهذا فإن إضافة العهد

---

(١) ١٦٨ جـ٨ التحرير والتنوير..

إلى الله -تعالى- لأدنى مناسبة ليكون العهد شاملاً لما عاهدهم الله عليه ، ولما عاهدوا الله عليه «كالعهود التى يعقدونها بالموالاة والصلح أو نحو ذلك.. لأنهم كانوا يتحالفون عند التعاقد (أى يوثقون عهودهم بالحلف) ولذا يسمون العهد (حلفا) ومن ذلك حلف الفضول .. وفى الأمر بالوفاء بعهد الله تعريض بهؤلاء المشركين الذين عقدوا حلف الفضول وغيره على حماية أهل مكة من الظلم والجور ثم نقضوا عهدهم باعتدائهم على ضعفاء مكة الذين اعتنقوا الإسلام كعمار بن ياسر وبلال بن رباح وعامر ين فهيرة وغيرهم[1] ومغزى هذا التعريض هو السخرية بهم؛ حيث كانوا يتمادحون بالوفاء بالعهود وإذ بهم ينكلون وينقضون فجاء التعريض بهم « وبعهد الله أوفوا ».

* وقدم الجار والمجرور «بعهد» على ماتعلق به «أوفوا» للإهتمام بعهد الله ولتقويته وليفيد قصر الوفاء علي عهد الله وفى ذلك اهتمام به للمبالغة فيه ، وكأنه لا وفاء إلا فى عهد الله مع أنه مطلوب مع الله ومع الناس، وكما أن فى هذا التقديم إشارة إلى أن هذا الوفاء على سبيل الوجوب؛ لأنه هو والقول بالعدل فى طوق البشر؛ ولذا - كما سبق - ليم وتوعد بالعقاب من لم يوف بهما فى الآيتين الكريمتين : « ولاتكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه»[2] « الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر

---

(١) ١٦٩ جـ٨ التحرير والتنوير .

(٢) ٢٨٣ سورة البقرة .

الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار»[١].

وهنا- أيضا- جاء طلب الوفاء بعهد الله بصيغة الأمر «أوفوا»؛ لأن الطلب به مباشر لقصد إشاعة هذا المعنى - أيضا- فى نفوسهم ، وليرسخ فى أذهان الناس ؛ وليصير ذلك كالسجية فيهم ، ولايتأتى ذلك بهذه الصورة مع طلب الوفاء بصيغة غير مباشرة هى النهى « وعهد الله لاتخالفوه، أو لاتنقضوه» .

* ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون :

ماقيل فى ختام القسم الأول من الوصايا فى بلاغة «ذلكم وصاكم به لعلكم» يقال -هنا أيضا[٢] غير أن ختام الآية بهذا التوقع: «لعلكم تذكرون» فلأن هذه الوصايا الأربعة كانوا يفعلونها ويتفاخرون بها .. من القيام على أمر اليتيم والوفاء فى الكيل والميزان والعدل فى القول، والوفاء بعهد الله[٣] فهو يذكرهم بما تعارفوا عليه ومايتمادحون بالوفاء به ، ولهذا جاء الختام بتوقع التذكر؛ لأن «الذكر ضد الغفلة والقلب الذاكر غير الغافل فهو يتذكر عهد الله كله ويتذكر وصاياه المرتبطة بهذا العهد ولاينساه»[٤].

---

(١) ٢٥ سورة الرعد .

(٢) راجع ص ٣٨ ، ٣٩.

(٣) ١٠٠٤ جـ٥ تفسير الشيخ الشعراوى.

(٤) ٢٣٤ جـ٣ فى ظلال القرآن.

* « وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله».

هذا هو القسم الثالث والأخير من هذه الوصايا وهو الوصية باتباع صراط الله المستقيم وعدم اتباع السبل الأخرى المعوجة التى تضل السالكين فيها[١] وهذه الوصية هى أجمع الوصايا على الرغم من إيجازها؛ إذ فيها إيجاز بليغ بالقصر حيث توصى باتباع كل تعاليم الإسلام الواردة فى القرآن الكريم وعلى لسان رسول الله - صلى الله عليه وسلم- من تشريعات وعقائد وأخلاق كريمة، وتوجيهات اجتماعية.. كما تشمل-أيضا- الوصايا السابقة وكأنها إيجاز أو تلخيص لها ، كما تشمل ماينضوى تحت مصادر التشريع الإسلامى الأخرى، ولو فصل هذا الصراط المستقيم «لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربى ..».

وفى (أن) ثلاث قراءات : كل منها لايخلو عن بلاغة عالية .

---

(١) أخرج أحمد وجماعة عن ابن مسعود- رضى الله عنه- قال: خط لنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خطا بيده ، ثم قال«هذا سبيل الله - تعالى- مستقيماً ، ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قال: وهذه السبل ليس فيها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ثم قرأ : «وأن هذا صراط مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله.. » وانظر رواية أخرى ١٣٧ ، ١٣٨ جـ٧ تفسير القرطبى وأخرى ٢٥٣ جـ٣ فتح القدير للشوكانى نشر دار الحديث ١٩٩٢.

القراءة الأولى : هى ما كانت بالهمزة المفتوحة وتشديد النون (أن)[١] والقراءة الثانية : هى ماكانت بكسر الهمزة وتشديد النون (إن)[٢] والقراءة الثالثة هى ماكانت بفتح الهمزة وإسكان النون (أن)[٣] على أنها مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف والجملة بعدها خبرها ، ويرجح بعض المحدثين[٤] أن تكون هذه المخففة مفسرة ؛ لتكون معطوفة على المفسرة الأولى فى قوله فى أول الوصايا « أن لاتشركوا به شيئاً »[٥] وفى كل من هذه القراءات بلاغة راقية تتوافق مع قصد القرآن الكريم ومع المناسبة (المقام) التى نزلت فيها هذه الآيات وماقبلها من التشنيع على المشركين الذين حرموا مالم يحرمه الله - تعالى - بل من عند أنفسهم ثم جاءت هذه الوصايا العشر لترشدهم إلى الطريق الصحيح فى التحريم ومايجب أن يحرم حقا وهو ماورد فى هذه الوصايا وغيرها من الله تعالى؛ لهذا نجد بالتدقيق والبحث أن كل قراءة من هذه القراءات تتوافق مع

---

(١) هى قراءة نافع وابن كثير وابن عمرو وعاصم وأبو جعفر .

(٢) هى قراءة حمزة والكسائى وخلف .

(٣) هى قراءة ابن عامر ويعقوب .

(٤) انظاهر بن عاشور فى ١٧٢ جـ٨ التحرير والتنوير .

(٥) هذا الرأى واهم لأن المفسرة شروطها مفقودة هنا وهى : أن تسبق بجملة ويتأخر عنها جملة وأن السابقة فيها معنى القول دون حروفه كقوله: تعالى « فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا » وقوله : « ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعلمون» ويدحضه أيضا أن المفسرة فيها معنى التفصيل وما هنا فيه إجمال ٣٠ ، ٣١ جـ١ مغنى اللبيب لابن هشام .

هذه المناسبة ، وعلى كل فإما أن تكون الواو فى قوله - تعالى-« وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه.. » عاطفة وإما أن تكون للحال أو للاستئناف والأولى والثانية تكون مع (أن) المفتوحة الهمزة المشددة النون ومع (أن) المخففة من الثقيلة - أما التى للاستئناف فتكون مع (إن) المكسورة الهمزة المشددة النون ، فما كانت بفتح الهمزة وتشديد النون، أو بفتح الهمزة مع تسكين النون فإن هذه الأداة لاتستعمل إلا فى درج الكلام (وسطه) لا فى ابتدائه مثل: يعجبنى أنك نشيط والواو معها إما إن تكون العاطفة أو واو الحال، وإذا كان الألوسى قد أنكر أن تكون عاطفة، إذ قال: «قوله -سبحانه - وأن هذا صراطى مستقيماً..» ليس عطفاً على أن لاتشركوا.. بل هو تعليل للإتباع متعلق باتبعوه على حذف اللام»[1] أى أن المعنى: (اتبعوا صراطى لأنه مستقيم، **فإن من يدقق النظر يجد أن** قوله : «وأن هذا صراطى مستقيماً» وإن كان تعليلا للإتباع من تقديم العلة على المعلل فإنه لايمنع أن تكون الواو عاطفة لهذه الوصية الجامعة على الوصايا السابقة فهى من عطف العام علي الخاص لمزية فى الخاص والعام معاً أما الخاص فلتفصيله وتوضيحه بالصورة السابقة لإفهامه العباد ، وأما العام فلإفراد هذه الوصية بالذكر لكونها جامعة شاملة كل تعاليم الإسلام ولذا فلو لم يذكر من وصايا غيرها لكفت غير أن الحكمة الإلهية اقتضت التفصيل فى الوصايا السابقة لتعليم البشر ، وهذا فى عطفه كقوله تعالى- «يوم يقوم الروح والملائكة صفا لايتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً، فقد عطف عاما وهو الملائكة على خاص وهو الروح(جبريل) لمزية فيه.

---

(١) ٥٨ جـ٨ روح المعانى .

ومما يلفت النظر هنا - تقدم التعليل على المعلل فإن قوله « وأن هذا صراطى مستقيماً » تعليل للإتباع «فاتبعوه» وذلك أقوى للغرض المسوق له الكلام وهو أن صراط الله مستقيم لايضل فيها السالكون وأنها غير الطريق المعوجة الضالة وفى ذلك شبه بتقديم الدليل علي المدلول عليه فى قوله -تعالى- «ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شئ قدير»[1] فقد قدم الدليل وهو إحياء الأرض الجدباء إذا أنزل الله عليها الماء على المدلول عليه وهو إحياء الله الموتى ؛ لأن من فعل هذا يفعل ذاك، وفى هذا التعليل - أيضا - معنى الشرط إذ معنى « ولأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه» هو معنى (ولما كان صراطى هذا مستقيما فاتبعوه)- أو (إذا كان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه) والشرط بمنزلة إقامة البرهان على صحة الشئ فإن استقامة هذا الصراط كالبرهان على صحة الاتباع لأن الصراط- أصلاً - هو الطريق الواضح الواسع لايضل فيه السالك، ويقر بوضوحه كل عاقل، وبخاصة أنه طريق الله الخالق لكل شئ ، والمدبر لكل شئ ، والمقدر لكل شئ .

وعلى أن الواو للحال مع (أن) بالفتح والتشديد؛ فقد جاءت (أن) متصدرة جملة: «وأن هذا صراطى مستقيماً» المشتملة على حالين؛ لتربطها بما قبلها، أما الحال الأولى فهى حال مفردة «مستقيما» وقد أكدت (أن) لزومية هذه الحال لصاحبها (صراط الله)؛ إذ لاتنفك عنه بحال مع تأكيد هذه الحال لصراط الله؛ إذ هى بمعناها فهى حال «لازمة مؤكدة» أما الحال الثانية فهى جملة «وأن

---

(١) ٣٩ سورة فصلت.

هذا صراطى» ؛ فإن المعنى (فصلت لكم هذه الوصايا والحال أن هذا صراطى) ومما يلفت النظر هذه التأكيدات بأن وبهاتين الحالين فكل منهما أكدت استقامة الصراط لإزالة كل شك عن استقامته المنجية من الهلاك .

وأما ما كانت بفتح الهمزة وإسكان النون (أن) وهى المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف فالبلاغة مع هذه ومع واو العطف هى ماسبقت مع (أن) المفتوحة المشددة - أما مع واو الحال فإن هذه المخففة أشعرت أن الكلام فى شأن وقصة ماله أهمية عظيمة ومنزلة عليا وهو هنا هذه الوصايا، وكأن قصتها تتناقلها الألسنة مع تعاقب الأجيال شأن كل قصة لها أهميتها وأثرها ، ولاغرو إذا كانت هذه الوصايا أنزلها الله -تعالى- علي جميع الأنبياء لأممهم ، ولذا يكون المعنى : والحال أن شأن وقصة هذه الوصايا أنها صراطى المستقيم- ولايخلو هذا من التعليل للاتباع -أيضا- وإن كان غير ظاهر كالسابق وأما ما كانت بكسر الهمزة مع تشديد النون (إن) فالواو معها تكون للاستئناف وكأن قوله « وإن هذا صراطى مستقيماً» كلام جديد غير أنه ذو صلة بما قبله ، والسر البلاغى فى هذا الاستئناف أنه جاء فى رأس القسم الثالث والأخير من هذه الوصايا وهو الوصية الجامعة التى تجمع هذه الوصايا السابقة كلها الواردة فى هذه الآيات وغيرها من الوصايا والتعاليم الإسلامية بعامة، وإذا كان ذلك كذلك فاستحق أن يكون هذا القسم شبه مستقل لأنه يعتبر رأساً بذاته، وإيجازاً أو تلخيصاً لكل تعاليم الإسلام ولذا فإن قوله : « وإن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه » من الإيجاز البليغ بالقصر الذى مضمونه اللفظ القليل مع المعنى الكثير، وهو هكذا من

النوع النادر -حقاً - إذ لو فصل مايحتويه (صراط الله) « لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى»..

هذا.. ولايخلو النظم الكريم مع إن المكسورة هذه من التعليل للإتباع ضمناً.

وهكذا نجد أن كل وجه من هذه القراءات له بلاغته العالية وجميعها مراد فى قصد النظم الكريم، وجميعها يتلاقى عند هدف واحد هو الحث علي اتباع هذه الوصايا دون سواها من السبل.

واسم الإشارة « هذا » اسم أن مؤكد بها وهو أصلاً إشارة، للمحس القريب المكان المشاهد بالنظر لكنه هنا مشار به إلى معنوى هو طريق الإسلام تنزيلاً لمكانته القريبة من النفوس منزلة الحسى القريب المكان إشارة إلى أنه أصبح واضحا كالطريق الحسى لالبس فيه ، ماثلاً فى النفوس لاغموض يعتريه، فلا يصح لهم أن يجتنبوه بل يجب أن يتبعوه.

و « الصراط» - أصلا - هو الطريق الحقيقى الواضح الواسع الذى لاعوج فيه يسير فيه الناس بسهولة ويسر شبه به الإسلام « هذا صراطى مستقيما » تشبيهاً مؤكداً حذفت فيه الأداة للمبالغة باتحاد الطرفين: الطريق الحقيقى والإسلام وكأن هذا هو ذاك، وذلك لتجسيم طريق الإسلام فى صورة حسية تتمثل فى أذهان السامعين بصورة أوضح كأنها طريق حقيقية يسير فيها الناس دون عناء ، « وقد عدل إلى ضمير التكلم فى الإضافة «صراطى» عن ضمير الغيبة فى «ماحرم عليكم» لغرض الإيماء إلى عصمة هذا الطريق من الذلل، لأن

كونه صراط الله يكفى فى إفادة أنه موصل إلى النجاه[١] كما أن فى هذه الإضافة صراطى» تعظيم وتفخيم وإجلال وتشريف للصراط، ولاغرو فهو صراط الله الذى تكفل بحماية أوليائه «ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز»[٢] « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز»[٣].

ومن البلاغة القرآنية اللطيفة أن يجئ وجه الشبه «مستقيماً» حالا مؤكدة لازمة لصاحبها؛ إذ تؤكد استقامة الطريق وتلازمه فهى كما أنها لازمة للطريق الحقيقى (المشبه به) لازمة - أيضا - لطريق الله (المشبه) لاتنفك عنه بأى حال وهذه الحال أو وجه الشبه هو العمود الفقري للغرض من هذا الكلام وهو اتباع صراط الله حيث إنها الطريق المستقيم الذى لاعوج فيه والموصل إلى النجاة، بل يشتم من هذه الحال التعريض بالسبل الأخرى التى على رأس كل منها شيطان يدعو إليه ولهذا فإنه قال عن هذه السبل «فتفرق بكم عن سبيله».

و(الفاء) فى قوله : «فاتبعوه» داخلة على شبه الجواب لربطة بشبه الشرط[٤] « وأن هذا صراطى مستقيماً » وذلك مثل: (الذى يأتينى فله درهم) فلزوم الدرهم مترتب على الاتيان وكذلك الاتباع مترتب على كون صراط الله مستقيما؛ إذ أن المعني كما

---

(١) ١٧٣ جـ٨ التحرير والتنوير.

(٢) ٤٠ سورة الحج.

(٣) ٢١ سورة المجادلة.

(٤) يراجع ١٤١ جـ١ مغنى اللبيب لابن هشام.

سبق: (إذا كان كان صراطي... أو لما كان صراطي مستقيما فاتبعوه) غير أن هذه الفاء في الآية الكريمة لازمة لا تستقل بحال من الأحوال؛ إذ أنها مؤشر ظاهرى على لزوم الاتباع وترتبه على استقامة صراط الله بخلاف هذا المثال فإنها فيه يجوز إثباتها أو إسقاطها؛ إذ أن المكافأة قد تسقط على الرغم من الإتيان، وكالمثال الآية الكريمة: «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم»[1] فقد تثبت الفاء وقد تسقط على قراءتين؛ لأن مقامها غير مقام « وأن هذا صراطي مستقيماً »؛ لأنه ليس ضرورياً أن يوجد تلازم وترتب بين حلول المصائب واكتساب الذنوب؛ فقد تكون المصائب للابتلاء (الاختبار) من الله - تعالى- وسقوط الفاء مؤشر ظاهرى علي ذلك؛ أما في الآية الكريمة « وأن هذا صراطي مستقيما.. » فلا تسقط بحال من الأحوال للترتب والتلازم بين اتباع صراط الله واستقامته؛ لأن اتباعه واجب وجوباً عينيا...

وجاء طلب اتباع صراط الله بصيغة الأمر - هنا - أيضا وليس بصيغة النهى (لاتخالفوه) -مثلاً- للترغيب فيه وليكون ذلك نصاً في المعنى المراد واستقصاء له وتوقعاً في ألا يكون فيه احتمال مخالفة من المخاطبين ، كما أن الغرض هو إشاعة أمر الاتباع وتقريره في النفوس ليصير كسابقه كأنه «سجية تلك فيهم غير محدثة» فذكره بنصه لذلك.

---

(١) ٣٠ سورة الشورى .

« ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » :

« السبيل » جمع سبيل وهو يرادف الصراط، ألا ترى إلى قوله- تعالى- «قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى »[1] و السبل - هنا- موصوف حذف وصفه لكونه معلوما مما سبق ومن الحديث الشريف، أى السبل المعوجة غير الموصلة إلى الخير، وهى - أصلا- طرق تتشعب من السبيل الجادة الواضحة المستقيمة يسلكها بعض المارة فرادى إلى بيوتهم أو مراعيهم ولايستطيع السير فيها إلا من عقلها واعتادها[2] ولهذا تتفرق بالسائرين فيها ، أى يضلون فيها فى أماكن شتى ولهذا حسن التعليل للنهى عن سلوكها بقوله -تعالى- « فتفرق بكم عن سبيله».

هذا ... ولما كان الغرض هنا هو التنفير من السبل المعوجة الضالة جاء الكلام - بعد الأمر باتباع صراط الله - علي النهى عن اتباع السبل الأخرى الشيطانية فى موقعه من البلاغة المؤثرة؛ إذ جاء النهى عن اتباعها مؤكدا للأمر باتباع طريق الله ، ولهذا حسن التعليل للنهى عند سلوكها بقوله تعالى: «فتفرق بكم عن سبيله» فالفاء للتعليل .

وأرى : أنه لا مانع من أن تكون عاطفة للترتيب والتعقيب للإشعار بسرعة التفرق والضلال بمجرد سلوك هذه السبل المعوجة التى

---

(١) ١٠٨ سورة يوسف .

(٢) ١٧٣ جـ٨ التحرير والتنوير .

تدعو إليها الشياطين كما فى الحديث الشريف - كما أن المعنى على فاء التعقيب فيه إشارة إلى وجوب التمسك الدائم باتباع منهج الله دون تراخ بناء علي هذا التعقيب حتى لاينزلق المؤمن فى مهاوى الخطيئة.

وفى «السبل» استعارة تصريحية أصلية وأصلها تشبيه الدعوات الشيطانية بالسبل غير المستقيمة التى يضل فيها السالكون ، وتنوسى التشبيه للمبالغة فكانت الاستعارة وهى أكثر مبالغة من التشبيه لدخول المشبه (الدعوات الشيطانية) فى جنس الطرق المعوجة الضالة بادعاء أن المشبه فرد من أفراد المشبه به ، وكأن دعوات الشياطين سبل حقيقية معوجة محسة يسير فيها الضالون حقيقة ، وماذلك إلا لإبراز هذه الدعوات فى صورة مجسمة مرئية فى رأى العين حتى يتصورها السامعون أوضح فى الذهن ولتتأثر النفوس بهذا التصوير أكثر فيجتنبوا هذه السبل.

وقوله « فتفرق بكم» أصله: فتتفرق حذفت إحدى التاءين للخفة، ومعنى « فتفرق بكم عن سبيله» (تفرقكم عنه) ؛ إذ أن الباء - هنا - للمصاحبة أى تتفرق السبل مصاحبة لكم فهو مثل : ذهبت بمحمد بمعنى أذهبته ولكن أيهما أبلغ : « فتفرق بكم عن سبيله» أم (فتفرقكم عن سبيله» ؟ لاشك أن كلا منهما فيه المعنى المراد وهو التفرق والبعد عن صراط الله المستقيم لكن الذى بباء المصاحبة «فتفرق بكم» أبلغ لأن فيه مع المعنى المراد زيادة هى تأكيد هذا المعنى بالباء؛ إذ يشتم فى الباء معنى الحمل والإجبار رغماً عنهم على التفرق إذ لاحيلة لهم مع الطريق المعوجة ، فهم يسيرون فيها

حيثما سارت وينتهون حيث انتهت فتكون الهلكة ويظهر ذلك أكثر فى مثل: ذهبت بمحمد أى مصاحباً له يسير معى وكأن المتكلم حمل محمداً حملاً وذهب به إلى حيث يريد مثل : ذهبت بكتابى إلى الدرس، وكأن محمدا لا حيلة له فهو مستسلم استسلام هذا الكتاب؛ ولذا كان قوله : « فتفرق بكم عن سبيله» أبلغ من (فتفرقكم عن سبيله) .

وفى «سبيله» التفات من المتكلم فى «صراطى» إلى الغيبة؛ ليتسق ذلك مع ضمير الغيبة المستتر فى قوله: « وصاكم» ؛ لكى يتناسق ذلك التنسيق البديع مع تذييل الآيات السابقة : «ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون» «ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون» «ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون» فيكون ذلك أوقع فى النفس وأكثر تقبلاً للمعانى.

والإشارة فى «ذلكم» هى- على الصحيح - للمشار إليه بمثلها فيما سبق وهو المذكور من الوصايا المذكورة آنفاً، وإن كان يمكن أن تكون الإشارة - هنا بخاصة إلى صراط الله[1] ، وعلى كل فما قيل من البلاغة فى « ذلكم» السابق يقال - هنا[2].

---

(١) يرى البيضاوى فى تفسيره أن الإشارة لاتباع صراط الله ١٣٩ جـ٤.

(٢) يراجع ص ٣٨.

و«لعل» هنا- كما فى السابق للتوقع - أيضا - حيث يتوقع أن يتقوا الله بعد وقوفهم على وصايا الله -تعالى - وعلى بيان صراطه المستقيم الموصلة إلى النجاة وبيان سبل الشياطين الموصلة إلى الهلاك؛ إذ أن المعنى : (نتوقع أن تتقوا الله بعد هذا البيان، وفى هذا إشارة إلى الأمل المنشود فيهم ، والذى جاء الإسلام من أجل تحقيقه ، وقد كان بالقضاء على الشرك فى مكة والجزيرة العربية ثم فى أنحاء البلاد التى دخلها الإسلام .

أهم مراجع البحث

١- إعراب القرآن وبيانه للأستاذ / محيى الدين الدرويش طبع ونشر دار ابن كثير . دمشق ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

٢- بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز المجلد الأول هدية منبر الإسلام رجب سنة ١٤٠٧هـ.

٣- بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدى جـ٢ الطبعة الخامسة نشر مكتبة الآداب بالجماميز .

٤- تفسير البيضاوى جـ٤ على هامش حاشية الشهاب الخفاجى المكتبة الإسلامية - محمد أزدمير - ديار بكر - تركيا.

٥- تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور جـ٨ نشر الدار التونسية ١٩٨٤م.

٦- تفسير الشيخ الشعراوى جـ٥٠ طبع وتوزيع أخبار اليوم .

٧- تفسير الكشاف جـ٢ - الدار العالمية للطبع والنشر والتوزيع .

٨- الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧ الطبعة الثالثة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م دار الكتاب العربى .

٩- حاشية الدسوقى - شروح التلخيص جـ٢ الطبعة الأولى .

١٠- روح الاجتماع. د. جوستاف لوبون . ترجمة أحمد فتحى زغلول - المطبعة الرحمانية.

١١- روح المعانى للألوسى جـ٨ مكتبة دار التراث بالقاهرة . المركز الإسلامى للطباعة والنشر بالأهرام .

١٢- عناية القاضى وكفاية الراضى جـ٤ (حاشية على تفسير البيضاو للشهاب الخفاجى).
١٣- فتح القدير للشوكانى - دار الحديث ١٩٩٢م.
١٤- فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب جـ٣ دار الشروق الطبعة العاشرة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
١٥- مغنى اللبيب لابن هشام . نشر دار إحياء الكتب العربية .

معاجم استعنت بها فى البحث :

١- لسان العرب لابن منظور - نشر دار المعارف .
٢- المصباح المنير للفيومى الطبعة الثامنة . نشر وزارة المعارف ١٩٣٩م.
٣- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم للأستاذ / محمد فؤاد عبد الباقى - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.